

## مقتطفات

مَنْ رَجُلٍ خَلَّيْنَا الْعِيَّاشِيَّ

( ماء الموائد )

تتعلق بالحج ومشاعره ووصف المدينتين الكريمتين.

لعبدالله بن محمد العياشي

الترغف سنة ١٠٩٠ هـ

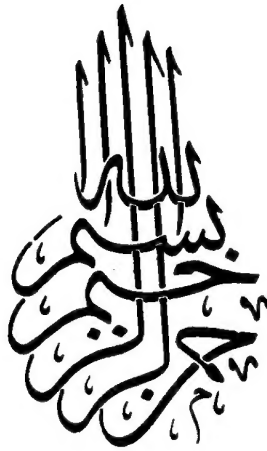
عبد المجيد

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى  
١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

منشورات  
**دار الرفاعي**  
للنشر والطباعة والتوزيع  
ص.ب. ١٥٩٠ الرياض ١١٤٤١  
تلفون ٤٧٧٧٢٦٩

الغلاف من ريشة الفنان: **محيي الدين منقوش**



مقتطفات من رحلة العياشي

مرخص من المديرية العامة للمطبوعات

برقم ٣٤٢ / م

تاريخ ١٤٠٣/٨/٢٠ هـ

## تقديم

ليس ماسأعرضه على القارىء من مقتطفات من هذه الرحلة مما يتعلق بالحرمين الشريفين، ووصف طريق الحج، وذكر بعض ما شاهده الشيخ العياشي في أثناء حجاته، ليس كل ذلك تلخيصاً للرحلة، ولكنه عرض لنصوص مختصرة، يتركز أهمها في وصف الطريق من مصر إلى مكة المكرمة، ثم لمحات موجزة ذات صلة بالحج، وبمختلف أحوال سكان المدينتين الكريمتين، وما بينهما.

والغاية من ذلك تشويق القارىء لمطالعة هذه الرحلة التي هي بحق كما وصفها مؤلفها (ديوان علم).

وهنا أمران يجب أن لا يعزبا عن الأذهان :

أولهما : أن المؤلف عاش في عصر يختلف عن عصرنا، ولهذا فقد تضيق نفوس بعض القراء ممن يجدون فيه أنماطاً من الأفكار والآراء، لا تتفق مع إدراكهم، ومبلغ علمهم، وخاصة ما يتصل بالطرق الصوفية، وبالأمر الروحانية، فالمؤلف — أسبغ الله عليه فيض عفوه وغفرانه — قد حشا كتابه بما يتصل بأحوال الصوفية، وما يتصل بفرقهم وآرائهم المختلفة.

مع أنه في كثير من المواضع يشدد النكير على من خالف الصحيح الثابت عن المصطفى — صلى الله عليه وسلم — وأصحابه وتابعيه بإحسان، في الأمور الدينية.

ولو نظرنا إلى كل ما بين أيدينا مما خلفه لنا علماؤنا في مختلف العصور لما وجدنا إلا القليل مما لا تستسيغه أفكارنا، بل قل أن نجد ما يخلو من الخطأ كما قال جل ذكره : (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) والطريقة المثلى أن نقبل الحق أيّاً كان مصدره، ونزود ما عداه، ولا يكون هذا حائلاً بيننا وبين الاستفادة بما فيه نفع من تراثنا.

الأمر الثاني : أن هذه المقطعات ماهي سوى نماذج لما في تلك الرحلة مما يتعلق بالموضوع الذي أَلَفْتُ فيه، وليست شاملة لكل ما ورد فيها، وقد يكفى من القلادة ما أحاط بالجيد).

وما عملي هنا سوى تلخيص لأهم ما تعرض الشيخ العياشي للحديث عنه مما له صلة بالبلاد المقدسة وسكانها.

ولا أعتقد أن طباعة هذه الرحلة، ونشرها كاملة، يقلل من الاستفادة من هذا الملخص الذي سأعرضه.

وفي مثل هذا التقديم لابد من الحديث عن الرحلة في أصلها، وعن المؤلف.

## الرحلة، ومؤلفها :

الرحلة العياشيّة، واسمها : «ماء الموائد» من أوفى رحلات الحج، بل هي أوفى رحلة اطلعت عليها، وقد ورد فيها : (وقصدي — إن شاء الله — من كتابة هذه الرحلة أن تكون ديوان عِلْمٍ، لا كتاب سَمَر وفكاهة، وإن وُجِدَ الأمران فذلك أدعى لنشاط الناظر فيها، سَيِّئاً إن كان صاحب تلوين، وأما صاحب التمكن فلكل شيء عنده موقع ونفع، لا يوجد عند غيره) (١) انتهى.

والواقع أنها كما ذكر، فهي ديوان علم لِمَا حوته من المباحث العلمية المتنوعة، ومن الكلام على منازل الحج ومشاعره المقدسة، ومن وصف شامل للحجاز في القرن الحادى عشر الهجري في مختلف حالاته الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والإدارية. ثم هي كتاب سَمَر ومحاضرة لما تخللها من مباحث أدبية وقصص وأخبار ومقطوعات شعرية.

وتعتبر رحلة العياشي مصدراً لكثير من جاء بعده من الرحالين المغاربة، كابن ناصر وابن عبدالسلام والزبادي وغيرهم، ولهذا وصفه ابن ناصر في رحلته بأنه (إمام المرتحلين في زماننا) (٢) ولخص كثيراً مما جاء في رحلته، حيناً يصرح بالنقل منها، وأحياناً يفوته ذلك.

ترجمة العياشي : هو أبو سالم، عبدالله بن محمد بن أبي بكر العياشي المغربي المالكي من أهل فاس.

وهو منسوب إلى قبيلة من البُربر، تُدعى آية عياش.

ولد سنة سبع وثلاثين بعد الألف، وتلقّى العلم عن مشاهير علماء بلده كالإمام الأتبار، والشيخ مَيّارة، وأبي زيد بن القاضي، وعبدالقادر الفاسي، وهو

(١) ج ١ ص ٢٢٤.

(٢) «الرحلة الناصرية» ج ١ ص ٧٣.

عمدته. وفي درعة أخذ عن الإمام ابن ناصر الدرعي، وفي مصر عن الشيخ علي الأجهوري والشهاب الأميني شارح «الشفاء».

وحجّ مراراً أولاً سنة ١٠٥٩ (١) وسنة ١٠٦٤، وسنة ١٠٧٢ هـ.

وجاور في الحرمين وفي القدس، وفي الخليل.

وتوفي في شهر ذي القعدة سنة تسعين وألف (٢).

مؤلفاته: للعباشي مؤلفات منها :

- ١ — «ماء الموائد» وهي رحلته — مطبوعة.
- ٢ — «إظهار المنة، على المبشرين بالجنة» مخطوط.
- ٣ — مسالك الهداية.
- ٤ — «تحفة الأخلاء، بأسانيد الأجلاء» يحوي إجازات علماء الحرمين وغيرهم، للعباشي، ذكره في الرحلة (٣).
- ٥ — «تنبيه ذوي الهمم العالية، على الزهد في الدنيا الفانية».
- ٦ — الحكم بالعدل والإنصاف.
- ٧ — اقتفاء الأثر.
- ٨ — «سوق النفوس، وأنس النفوس» رسالة في التصوف، من مخطوطات خزانة الرباط (برقم ١١٠١) (٥١٣٨٨).
- ٩ — أرجوزة في ٣٧٠ بيتاً في الفقه، من مخطوطات خزانة الرباط (برقم ١٦١٨) ١٢٣٦ (و ١٦١٩ ٥١٤٣٩) (٤).

رحلته: طبعت رحلة العبّاشي على الحجر بالخط المغربي في مدينة فاس سنة ١٣١٦ هـ في جزأين ٤٥٦ و ٤٢٢ صفحة = ٨٧٨ صفحة + ٨ + ١٦ — فهارس وتقاريف وإصلاح تطبيع.

(١) رحلته ٨٨٨/١ م

(٢) ماتقدم ملخص من مقدمة الرحلة.

(٣) ج ١ ص ٤٤٣ و ٤٤٥.

(٤) عن مقدمة الرحلة و«معجم المطبوعات» و«الأعلام» والعبّاشي مترجم في تاريخ الجبرتي

و«الأدب الجغرافي»، ودائرة المعارف الإسلامية باللغة الانجليزية ص ٢٢٣ طبعة لندن .

وقد أعيد نشر تلك الرحلة بطريقة التصوير سنة ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م، وقام الأستاذ محمد حجي - أستاذ التاريخ في كلية الآداب في مدينة الرباط - بوضع فهرس عامة لما فيها من أسماء الأشخاص والأماكن والكتب، ألحقت بالجزء الثاني من تلك الرحلة في ٥٠ صفحة.

وهذه الرحلة تتضمن وصف خروجه يوم الخميس أول ربيع الثاني سنة ١٠٧٢هـ للحج من مراكش حتى وصوله مدينة القاهرة في ٢٦ رمضان سنة ١٠٧٢هـ.

وهذا القسم من الرحلة يقع في ١٢٥ (من أول الجزء الأول) ثم وصف إقامته في مدينة القاهرة إلى يوم الخميس ٢٧ شوال من السنة المذكورة من ص ١٢٥ إلى ١٥٧ من الجزء الأول. ثم الكلام من خروجه من القاهرة حتى بلوغه مكة المكرمة في اليوم الخامس من ذي الحجة من ص ١٥٧ إلى ص ١٦٠ من الجزء الأول).

ثم ذكر خروجه من مكة بعد الحج، ووصوله المدينة في ثاني المحرم سنة ١٠٧٣هـ ثم إقامته في المدينة (من ص ١٦٠ إلى آخر الجزء ٤٦٦، لا كما جاء في المطبوعة ٤٥٦<sup>(١)</sup>).

وفي الجزء الثاني وصف إقامته في المدينة إلى ١٥ شعبان سنة ١٠٧٣هـ ثم رحيله إلى مكة ووصوله إليها وإقامته فيها لأداء الحج، ثم رجوعه إلى المدينة في ١٨ ذي الحجة سنة ١٠٧٣هـ (من أول الجزء الثاني إلى ص ٢٨٧ منه) ثم ذكر إقامته في المدينة إلى اليوم الثاني من شهر المحرم سنة ١٠٧٤هـ (في عشر صفحات إلى ص ٢٩٧).

ثم تحدث عن عودته بطريق العقبة، حيث وصلها في آخر شهر المحرم ١٠٧٤هـ (في ثلاث صفحات من ٢٩٧ إلى ٣٠٠).

---

(١) عند تصوير الرحلة أصلحت أرقام الصفحات المكررة، وقد نقلت من المطبوعة فأحلت إلى صفحاتها، ثم طالعت المصورة فأصلحت بعض الصفحات، وفاتني إصلاح بعضها، فأرجو التأكد من صحة رقم الصفحات بمطابقته على ما بيد القارئ من إحدى النسختين، المطبوعة أو المصورة.

ومن العقبة سار إلى غَزَّة في ٢٩ المحرم سنة ١٠٧٤ هـ فبلغها سابع صفر ومنها سار إلى مدينة الرملة ثم إلى القدس، ومن القدس سار في ٢٣ صفر إلى بلدة الخليل، ثم غادرها في ٢٦ صفر إلى غزة (من ص ٣٠١ إلى ٣٥٢).

وسار من غزة في سابع ربيع الأول إلى الخان، ومنه إلى العريش فدمياط، ومن دمياط ببحراً إلى بولاق، فالقاهرة، ومنها إلى الإسكندرية (بطريق النيل) فبلغها سادس ربيع الثاني (من ص ٢٥٣ إلى ٣٦٠).

ومن الإسكندرية سار عائداً إلى طرابلس فبلغها في ٢٢ ربيع الثاني. وأقام فيها إلى اليوم الخامس من شهر شعبان (من ص ٣٦١ إلى ص ٤٠٣).

وسافر من طرابلس إلى بلده حيث وصل في اليوم السابع عشر من شوال، وتحدث عن ذلك من (ص ٤٠٣ إلى ص ٤٢٢ وهو آخر الجزء الثاني).

وسألَ خَصُّ للقارئ كلَّ ما يتعلق بالحج من وصف طريقه من البركة — بقرب القاهرة — ماراً بصحراء سيناء، حتى العقبة، ثم بمحاذاة ساحل بحر القلزم (البحر الأحمر) إلى ينبع، ثم إلى بدر، فالمدينة أو مكة، ثم وصف المدينتين الكرعتين، ومشاعر الحج المقدسة، والطريق بين الحرمين، وما يتخلل ذلك حتى العودة إلى البركة.

وقد يقال : إن الرحلة مطبوعة، فلماذا هذا العمل والكتاب متداول؟! والجواب :

(١) أن الكتاب مضى على طبعه زمن طويل، فأصبح في حكم النادر، إن لم يكن في حكم المفقود.

(٢) طبع الكتاب على الحجر مُصَوِّراً — بالخط المغربي الجميل الذي هو فرع من الخط الكوفي القديم، وهذا النوع من الخطوط — مع جماله — قلَّ من يُحسن قراءته من المشاركة. ولهذا لم يتمكن تجار الكتب من إعادة طبع هذا الكتاب، مع طبعهم رحلات كثيرة تعتبر بالنسبة لهذه الرحلة ليست بذات قيمة علمية.

(٣) :تعتبر رحلة العياشي مصدراً هاماً من مصادر الرحلات إلى الحج.  
والواقع أنها جديرة بالدراسة العميقة ولا سيما مايتعلق منها بالحجاز، فهي —  
ولا شك — من أوفى المراجع وأصحها — لكل من يريد أن يدرس أحوال  
هذه البلاد في القرن الحادي عشر الهجري.  
وليس من المبالغة القول بأنها تَقْضِلُ كلَّ الرحلات التي وصلت إلينا  
مطبوعة. فيما يتعلق بذلك القرن — بدون استثناء —.

فطباعة الكتاب برزت بصورة لا تُهَيِّء الاستفادة منه لكل قارئ، فالخط  
المغربي — مع جماله، وصلته الوثيقة بالخط العربي القديم — تستعصي قراءته على  
كثير من القراء في المشرق، ويضاف إلى هذا ندرة نسخ تلك المطبوعة.  
وحياة القارئ — على وجه الإجمال — في هذا العصر تتطلب السرعة،  
والاكتفاء بالمعلومات المجملّة.

أما من اتجه للتخصص في الدراسة، تخصصاً يتطلب التعمق والإحاطة بموضوع  
تلك الدراسة، فقد يكون فيما عرضته من الكتاب من وسائل الترغيب ما يدفعه  
لدراسته كاملاً.

والحمد لله أولاً وآخراً.

حمد الجاسر



في الطريق إلى مكة



## في الطريق إلى مكة المكرمة

البركة :

كان ارتحالنا من مصر بكرة يوم الخميس السابع والعشرين من شوال (١٠٧٢هـ)، وفي ذلك اليوم خرج معظم المغاربة ، ونزلنا قبل الظهر بالبركة... وعند نزولنا أخذ المصري في الارتحال، وتلك عادة في الرحيل في اليوم السابع والعشرين، ورجع المشيعةون له من هنالك، وأكثر المتسوقين في ذلك اليوم.... وبات هنالك من عتّين لحراسة الركب من الجند، لأن العادة من يوم خروج الركب المصري إلى العادلية ثم إلى البركة يعتّين للخروج طوائف من العسكر، ينزلون من مصر إلى القاهرة ليلاً ونهاراً ولا ترجع العساكر من هنالك حتى ترتحل الأركاب كلها.

ولم يخرج آخر المصري من الدار إلا قرب المغرب، وبات الركب المغربي هناك.

ولما كان أمر الناس في هذه السنة متفقاً، وأميرهم إلى كثير من الخيرات مستبقاً، نادى مناديه عشاء : (أن لا يرتحل أحد حتى يصلي الفجر، ويضرب الطبل، فيزول الحجر) وبعد صلاة الصبح من يوم الجمعة أخذ الناس في الارتحال، وأثيرت الرحال، واستقبل بها مستقبل الشمس، ووجهة الصلوات الخمس... فودعنا صاحبنا الشيخ علياً الدمشقي، وهو رجل من أهل الخير لم نر أصدق منه لهجة... يبيع الكتب في الأزهر<sup>(١)</sup>.

---

(١) الرحلة : ١ / ١٥٨.

## الدار الحمراء :

ثم سرنا — بعد الفجر من البركة — ذلك اليوم في أطيب هواء لا حرّ ولا قَرّ.... وقد تأخرنا بجماعتنا ضحى، فظهرت لنا بالبيداء خيل قليلة، همّوا أن يقتطعونا دون الركب فلما تهيأنا لمقاتلتهم فرأوا الجَدّ منا تجتّبونا.

ثم نزلنا الدار الحمراء عند العصر ووجدنا آخر المصري في المنزل.

## عجروود :

ثم ارتحلنا من هناك ونزلنا عجروود، عند المغرب، وماؤه يضرب به المثل في القبح، واشتهر بذلك مع وجود ما يضاهيه كثيراً في مياه الدرب، لأن ذلك كان أول ماء يرده الحاج قبل أن يألف مشاقّ الطريق، ومع اعتياد الناس قبل ذلك لماء النيل، ووجود فضلة منه، لا يكادون يسيغون منه جرعة، إلّا وهمت من بطونهم بالرجعة.

وفي هذا المورد حصنان متقاربان مبنيان بأوثق بناء، يترك الناس فيها ما استثقلوه من الأزودة والأمتعة إلى الرجوع.

وكثيراً ماتعطب الميؤن من الإبل في هاتين المرحلتين، لجَدّ السير وثقل الأحمال، إذا لم يخفف منها بشيء، والإبل قد ألفت الراحة بمصر، ويغلب عليها السمن، وكثير من الناس لا يشفقون عليها، فيحملونها فوق طاقتها، ولا يرفقون عليها في المشي، لما يتوقعون من خوف اللصوص على من تأخر، فكل واحد يريد أن يتقدّم.

وفي أحد الحصنين اللذين هناك بئر كبير، يسقي دائماً في البقر، ويخرج الماء من البئر إلى برك ثلاث خارجة، ثنتان صغيرتان والثالثة كبيرة، وصورتها هكذا :

وعمق كل واحدة نحو العشرة أذرع، ودور الكبيرة نحو الثلاثين ذراعاً في نصفها،

صغيرة	٥٠
صغيرة	١٨

وكنا خشيناً أن لانجد في البرك ماء، لأن الركب المصري يشربه في الغالب، فلا يدع فيها شيئاً، فوجدنا الماء — بفضل الله — فاضلاً، أخذ الناس حاجتهم

منه بلا كلفة، ولم يكثر الناس السقي منه لعزمهم على ورود ماء النابعة، والمشي على طريقها.

وفي الحصنين المذكورين عسكر لا يفارقهما أبداً وكذلك غيرها من البنادر، في كل سنة يأتي قوم، فيذهب الذين كانوا فيه، ولهم جراية من بيت المال على ذلك.

### النابعة :

ثم ارتحلنا من عجرود قاصدين للنابعة، وعدلنا عن طريق الحاج التي فيها المصانع يمينا.

والمصانع سوارى مبنية في سبخة لا يظهر فيها أثر الطريق، فجعلوا تلك الأعلام المبنية ليستدل بها على الطريق، وجعلوا في رؤوس الأبنية حجراً مستطيلاً، خارجاً إلى ناحية الطريق، ليستدل به الماشي ليلاً، وربما علقوا على بعض الأعلام مصابيح بلبل، وبين كل علم وعلم نحو من فرسخ أو أقل، حتى انتهوا بها إلى طريق الرمل.

وعلى هذا الطريق يسلك الحاج المصري دائماً وكذا المغربي إلا في أوان الحر، وخوف العطش فيعدلون إلى النابعة على طريق المصانع حتى يظهر لنا البحر، وتقرب منا مدينة السويس جداً، حتى يكاد الإنسان أن يتبين من هو بخارجها...

فلما تجاوزنا وجه المدينة، وخلفناها وراء ظهورنا والبحر عن يميننا، نزلنا بعد الظهر بالنابعة، وهو واد كبير، ذو رمل فيه أحساء كثيرة تزيد على المائة، بل أين ما حفرت مقدار وقفة أو أقل وجدت ماء حلواً بارداً في غاية الحلاوة، كأنه ماء النيل، بل ربما يتوهم أنه أحسن منه، وسقى الناس منه إبلهم وأخذوا منه حاجتهم.

ووجدنا الأعراب الشعارة الذين يحملون الفول مع المصري قد نزلوا هناك وتلك طريقهم دائماً، ومعهم جملة من الخيل الدرب<sup>(١)</sup>، وكانت هذه المسافة قبل ذلك يتدرك بها أقوام من العرب، ثم إنهم نافقوا<sup>(٢)</sup> وذهبوا إلى ناحية غزة، وتدرك بها آخرون، فخاف الناس في هذه السنة منهم، فكفى الله شرهم<sup>(٣)</sup>.

### وادي الخروب :

ثم ارتحلنا من النابعة، وسلكنا بين جبال في أودية من الرمل، وكان الهواء بارداً والماء عذباً والناس ماشون على مهل، منبسطون غاية البسط. وكنت أقول لأصحابنا ممزحاً : من عدّ هذا اليوم من أيام الدرب فقد ظلمه، لأنه خالف الدرب في سائر أوصافه، فإن طريق الدرب معروفة بالماء القبيح، والحر والخوف، وهذا اليوم بخلاف ذلك، ولم نبت تلك الليلة حتى توسطنا وادي الخروب حيث تلتقي طريق النابعة وطريق المصانع، وسمي الوادي بشجرة من الخروب كبيرة في أصل الوادي.

ثم ارتحلنا من هناك وسرنا في الوادي مدة، ومررنا بالعقبة المشرفة على التيه، وهي عقبة فيها بعض صعوبة إلا أنها قد سويت، وبنيت بناء متقناً حتى صارت طريقاً لاجباً، ونزلنا فيها إلى أرض التيه بعد طلوع الشمس.

### التيه :

وهي أرض مقفرة موحشة طويلة عريضة معطشة، قد امتدت فيها الطرق امتداد السطور في الطروس، لم يلحقها على قدم العهد دروس، وهذا المحل من المحال التي تعظم فيها المشقة أيام الحر، وقد تتلف فيها أنفس كثيرة بالعطش.

وقد وقع لنا مثل ذلك في سنة ٥٩ ارتحل الناس من عجرود ظهراً، ولم يروا على النابعة فبتنا ليلتين بلا ماء إلا ماء عجرود، الذي لا يتجرعه الظمان ولا يكاد يسيغه، فلم نصل إلى أرض التيه حتى اشتد الحر في اليوم الثالث، وقلَّ

(١) في الهامش : (خ : الدرك).

(٢) «الرحلة» : ١ / ١٦٢.

الماء ومات بعض الإبل وجعل بعض الناس يعصرون ما في بطون الإبل، من  
الفرث ويشربونه وفي ذلك قلت :

ولم أنس بالتّيه يوماً به  
تفانّي الحجيج صدى وولوها  
وإن يستغيثوا يغاثوا بما  
ء عجرود، كالمهل يشوي الوجوها

وأما في هذه السّنة فلم يلق الناس فيه أذى لوجود الماء العذب، ودخلناه  
على أول النهار ولم نبت حتى قاربنا بندر النخيل.

### النخيل :

وفي الغد أتينا النخيل صباحاً، ووجدنا الركب المصري قد بات به،  
وصادفنا هناك سوقاً كبيرة، فيها كثير من أنواع الفواكه الشامية أتى بها أهل غزّة  
مثل التفاح واللوز وغير ذلك.

وهناك بندر حصين فيه بئر ماءه عذبة (؟) كبيرة (؟) لا تنزح أبداً، يسقى منها  
بالبقر إلى برك خارج الحصن، وهي ثلاثة مثل البرك التي في عجرود، إلّا أن  
هذه أعظم منها.

وقد وجدنا الماء فيها فاضلاً عن الركب المصري، وأخذ الناس منه حاجتهم،  
وكان أمره قد أهَمَّتْنا قبل ذلك، لأنّه من الموضع التي يصعب فيها الماء، إذ ليس  
فيه إلّا بئر واحدة، فإذا شرب المصري ما في البرك وقعت الزحمة على البئر فلا  
يصل الناس إلى الرّي إلّا بعد حرج شديد ومشقة فادحة.

فلما جنّ الليل ورحل المصري كله خرج أصحابنا المغاربة وعسكروا خارج  
ركبهم، إرهاباً للعرب لأنهم قد استقلونا، فظهرت لهم في الركب قوة نار، وكثرة  
رجال، وكنا قبل ذلك ربما يظهر بعض السراق بالليل، فن ذلك اليوم لم نر سارقاً  
بالليل ولا محارباً بالّنهّار.

ومما منّ الله به على ركبنا في هذه السنة أن قلّ فيه الفلاحون الذين يكثرون اللفظ والزحّة في الركب.

وقد كانوا في غالب السنين يكثرون في الركب المغربي فراراً من جور عساكر المصري، عليهم فيكثر صخبهم وخصوماتهم، فلا يكاد ينضبط للركب المغربي أمر من كثرتهم فيه، يرحلون في غير إبان الرحيل، ويتبع الآخر منهم الأول من غير تأنّ، سيما في محل الضيق والخوف، ولا يبالون بما أتلّفوا من أنفسهم وأموالهم خشية التأخر والمزاحمة على القرب من أول الركب، لغلبة الجبن والخور عليهم إذ لا يعرفون في بلادهم قتالاً ولا مدافعة عن الأنفس والأموال، لكونهم رعايا إن شتموا مروا وإن ضربوا قروا وكل مانقص الله من جهدهم وجراتهم وبسط أيديهم زائد في ألسنتهم، حيث لا يخافون فيبالغون في الشتم والسب حتى لا يكاد سامعهم يملك نفسه، فإذا رأوا من همّ بضرب خضعوا وقالوا : عافيه يا مغربي عافيه. ويقولون : المغاربة مجانين لا يعرفون إلا الضرب، وكان الضرب عندهم أبعد بعيد يصدر من شخص عاقل.

ولعمري إنه كذلك في حق كل مسلم لمسلم ولكن الغريزة الغضبية ممن لم تذله الأحكام، ولم تكسر من سورته شدة الأيام لا يملكها إلا الأقوياء.

ومما أعان على جمع كلمة الركب المغربي في هذه السنة أيضاً ذهاب كثير من أهل الدثور من المغاربة مع المصري، اتقاء من شدة الحرّ بالنهار، ولم يبق في الركب المغربي، إلا أهل المروءات من الناس، وأهل الخير، وذوي الحفاظ، وتعمّر الركب بالأذان والصلوات، ورفع الأصوات بالذكر والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وآلّف الله بين قلوب أهله، فلا يرحلون بليل، وينزلون قبل الليل واتفقت كلمتهم.

وقد كانت الأركاب قبل ذلك لقلة الإتقان يقولون : شيخها جل يعنون برغاء الجمل يرتحلون لا ياذن الشيخ، فأول من يسمع رغاء بعير يظن أن الناس يرتحلون فيقوم إلى بعيره، فإذا رآه الذي يجنبه قام، ثم كذلك حتى يرتحل الركب من غير إذن شيخ ولا مشورته، وربما يرتحلون وسط الليل فيتمكن اللصوص من الإيقاع بمن تأخر أو انفرد عن الركب، ويحصل من ذلك ضرر عظيم، ولا يكون

ذلك إلا من كثرة الأخلاط، وغلبة الأجانب على المغاربة، فإذا انفردوا — كهذه السنة — كان أمرهم جميعاً، فن رأى ركبهم وهو نازل يظن أنه قليل، وعند الرحيل تظهر كثرته وقوته، سيما إن حصل فزع، وبادر الناس إلى السلاح وتهاؤوا للكفاح سرت الخائف رؤيتهم، وأبهجتهم نجاتهم :

ثقال إذا لاقوا خفاف إذا دعوا  
قليل إذا عدوا، كثير إذا شدوا

### بر الصعاليك (بر البارود) :

ثم ارتحلنا من التّخيل، ونزلنا بر الصعاليك ويسمى بر البارود، وهي بر كبيرة طويلة مطوية بحجر وبناء متقن، في أصل وادي. وبجانب البر أثر بناء وبركتين، إلا أنه لاعمارة عليه، وماؤه بارد إلا أنه قبيح لا يكاد الشارب يسيغه، وسقى منها بعض الفلاحين الإبل. وماتت في الركب تلك الليلة امرأة موسرة من أهل تونس، وكانت لها محفة رفيعة تحمل فيها، فلما ماتت أوسعوا في حفر قبرها ودفنوها بمحفتها، وذلك غلو وبدعة وتضييع مال، فإن المحفة لها مال وقيمة، وحضر أمير ركب تونس وكبرائهم ولم ينكر ذلك أحد منهم.

### عرقوب البغلة — سطح العقبة :

ثم ارتحلنا من (بر البارود) ونزلنا بأول سطح العقبة، وقد مررنا ظهراً بموضع يقال له عرقوب البغلة، وهي عقبة فيها بعض صعوبة إلا أنها قد سويت وبنيت، واتخذ على جانب الطريق مسجد صغير غير مسقف، وذلك من عمل الأمير رضوان المتولى لإمارة الحاج أزماناً طويلة قريبة من ثلاثين وتوفي سنة ست وستين أو قريب منها، وكانت له آثار حسنة في طريق الحجاز من قطع الأشجار، وإزالة الأحجار، من الطرقات وحفر بعض الآبار، وتجديد بعض البرك، فجزاه الله خيراً، فلقد كانت له همة عالية في تخليد المآثر. فكم بالغ في الشاء عليه كل لسان، وأعلن بالدعاء له كل إنسان.

وإنما المرء حديث حسن (١)  
فكن حديثاً حسناً لمن وعى

وبتنا بسطح العقبة وكانت ليلة باردة، تزلنا في ثيابنا فلم تغن شيئاً كأننا  
بتنا في بعض جبال المغرب، وذلك من فضل الله علينا وعلى الناس، فإن  
الموضع وإن كان يعد في بلاد الشام وهي باردة، فالفضل فضل حرّ لا طمع  
للمسافر فيه في أقل من ذلك من البرد.

وقد عاتبنا من لم يجرب الطريق من أصحابنا وقالوا : كنتم تخوفونا بالحرّ  
حتى تركنا ثيابنا بمصر، فقلنا لهم : ستردون فتعلمون، وإن ظلمتم فلا تظلمون.

### العقبة :

ثم ارتحلنا من السطح وأخذنا في نزول العقبة بعد طلوع الشمس، وهي عقبة  
كثود، صعبة المهبوط والصعود، ولم لا وهي أيلة المشهورة، إلا أن الطريق بها  
منحوتة قد سويت في أكثر الأماكن الصعبة، وبنيت حافاتها ببناء متقن.

ولما كان المحلّ معروفاً بتلصص الأعراب وحرابتهم تهاً الناس، وأخذوا  
حذرهم، وأخرجوا أسلحتهم، خوفاً من عدوانهم، فإن الغالب أنهم لا يدّ أن  
يتعرضوا للركب في هذا الموضع لصعوبته، وتقدمت طائفة من الحجاج بمدافعهم  
أمام الركب، وتأخرت طائفة (وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً).

ولم نر بها سارقاً ولا غائراً، ونزلناها على مهل، وبعد أن نزلنا من المنحدر  
الصعب جعلت الطريق تلتوي في شعاب كأنها أزقة، يكثر فيها المخاوف  
والمتالف، فيرى البحر من بعيد فيظن قريباً، ولما وصلنا إلى البحر تأخرنا لدفن  
بعض الأشراف، مات بعد النزول من العقبة مطعوناً، وخشي أقاربه من جور  
الولاة إن أوصلوه إلى البندر فدفن هناك (٢)....

(١) الصواب : (حديث بعده) وهو من مقصورة ابن دريد.

(٢) الرحلة : ١ / ١٦٧.

ووصلنا إلى البندر عند الظهر، وفيه حصن حصين، في قرية على شاطئ البحر في سفح جبل، وبها آبار كثيرة، وفيها نخيل وسوق كبير، يحضره أهل غزة، وتأتيه الأعراب بالإبل والغنم والسمن والعسل، والعلف للدواب. ووجدنا الفول رخيصاً أرخص ممن اكترى عليه من مصر، وبتنا بها، وبات المصري هناك، وأوقد بالليل نيراناً كثيرة، وضرب المدافع ورمى المحارق في الهواء، ولها منظر عجيب، وأسلوب غريب، كأنها شهب النجوم يرمى بها من الأرض إلى السماء، فتراها في الجوطالعة حتى ترى من أعالي هام شوامخ الجبال دونها. ثم تنعطف راجعة كأنها ثعبان، ثم يسمع لها صوت وتخرج منها شرارات من النار فإذا انقطعت تلك اتبعها بأخرى، وخروجهن فيما ترى من نار زرقاء كأنها نار الكبريت، تشتعل اشتعالاً قوياً، فتطلع منها تلك الشهب، ولانعلم صنعة ذلك وهي من الغرائب، والرامي بها وبالمدافع عادة المصري في كل منزل أقام فيه إذا أراد الرحيل.

وقد سألنا هناك وبخشنا عن أثر القرية التي كانت حاضرة البحر هل بقي من رسومها شيء فقد ذكر المفسرون أنها أيلة فلم نجد من يشفي لنا خبرها.

وقد ذكر لنا بعض الناس أن بأعلى الوادي أثر بناء كثير يشبه أن يكون مدينة ولعلها هي.

وقد أخبرنا كثير من متسوقة الأعراب الذين هنالك أن وراء الجبل الكبير المشرف على القرية بلدة فيها نخل وماء، إلا أنها خالية ويمكن أن تكون هي فإنها قريبة من البحر، والعلم عند الله.

وقال في وصف العقبة عند عودته : من المويلح، إلى العقبة : ارتحلنا من المويلح بعد الزوال، ونزلنا حيث تنعطف الطريق يميناً عن البحر، وفي الغد مررنا بعيون القصب، وفتناه غير بعيد ونزلنا، وفي الغد نزلنا مغارة شعيب قرب المغرب، وفي الغد ارتحلنا بعدما طلعت الشمس وارتفعت، وبتنا أعلى الوادي دون شرف بني عطية، وفي الذي يليه نزلنا أسفل الوادي قريباً من البحر حيث تميل الطريق إلى ظهر الحمار وفي الذي يليه نزلنا العقبة ظهرًا<sup>(١)</sup>.

(١) «الرحلة» : ٢ / ٣٠٠.

ووجدنا أهل غزّة وأهل معان قدموا بعنب كثير وفاكهة، وبات الناس بها تلك الليلة وأقاموا غداً وارتحلوا يوم الأحد التاسع والعشرين من محرم، وأقنا بعده يوماً.

وزرنا — في ذلك اليوم — قبر الشيخ إبراهيم اللقاني<sup>(١)</sup>، وهو دون البندر في مقبرة هناك، معلم عليه بأحجار، وما عرفناه إلا هذه المرة دلّنا عليه بعض أصحابنا الأفريقيين.

### حفائر النخل — ظهر الحمار :

ثم ارتحلنا من العقبة، وسرنا في مسلك ضيق، بين البحر والجبل، لا يمر فيه، إلا جبل إثر جبل، كأنه متن السراط، إلا أنه غير مستقيم، وقلما يخلو هذا المحل لصوص، يتعرضون للركب فتشتت إذايتهم وتعظم نكايتهم، ولكن ذلك في الرجوع أكثر، ولم نر في يومنا هذا بأساً.

ونزلنا ظهراً بموضع يقال له ظهر الحمار، على بسيط من الأرض أحرش مرتفع، يطلع إليه من مسلكين لا يخلو من صعوبة، وتحت على شاطئ البحر أحساء كثيرة، في وسط حدائق نخل، وماء ذلك المحل كله طيب، وقد يسمى ذلك المحل في زماننا هذا حفائر النخل، وقلما تخلو من عمارة بعض ضعفة الأعراب، سيما في وقت جذاذ النخل، ويكون فيها في ذلك الوقت رطب جيد<sup>(٢)</sup>.

### شرفات بني عطية — عش الغراب :

ثم ارتحلنا منه وخلفنا البحر يمينا، وسرنا يومنا في صعود إلى نحو العصر، فوصلنا إلى موضع يقال له شرفات بني عطية، وبنو عطية، هم عرب هذه البلاد كلها في هذا الوقت، ويقال لهذا المكان أيضاً عش الغراب.

(١) ذكر أنه توفي راجعاً من الحج سنة ١٠٤٠ — ج ١ ص ١٤٤.

(٢) هذا الوصف ينطبق على حقل، الذي أصبح الآن مدينة.

## غريبة :

تزعم العرب أنّ الإبل تنفر في هذا المكان، ويقولون : إنها تسمع صوت صقب ناقة صالح، وأنه في ذلك الجبل، وأن هنالك الصخرة التي دخل فيها لما عقرت أمه، فالإبل إذا وصلت إلى ذلك المحل تسمع صوت العشار فتتفر.

ولا أدري من أين لهم ذلك، وهو بعيد، إذ ليست هذه ديار ثمود، الذين عقروا الناقة، وهم قوم صالح عليه السلام.

## أبو العظام :

ثم انحدرنا من الشرفات إلى محل النزول، ويسمى أبو العظام وبه ينزل المصري، ونزلنا به، وتسوقنا بعض نساء العرب بلبن وغيره، وأخبرونا أن من وراء الجبل الذي على يسارنا بلداً واسعاً فيه ماء جار، وأرض خصبة، وربما عطش الركب في ذلك المحل فيأتيهم العرب بماء يبيعونه.

## مغاير شعيب (مدين) :

ثم ارتحلنا من هناك وسرنا يومنا في هبوط منحدر مع الوادي، لانفارقه إلى أن نزلنا في المكان المسمى بمغاير شعيب عليه السلام، عند العصر، وأدركنا هناك أواخر المصري — كما هوشأنا في كل دار — وهي أحساء كثيرة في مضيق بين جبلين فيها نخيل، وماؤها طيب جداً حلو خفيف نافع، وتسوقنا بها أعراب مدين بأحمال كثيرة من العنب الجيد الأسود، وهو في غاية الحلاوة، وجاءوا برمان كثير، واشترى الناس العنب أولاً بدرهمين، ثم صار بعد ذلك رطل ونصف بدرهم.

ووقعت بين الأعراب عند نزولنا مهاجرة، فقتل واحد وارتث آخر.

وبين الموضع الذي نزلنا فيه وبين مدين مسيرة نصف يوم، وهي بلدة على ساحل البحر كثيرة الفواكه والمياه الغزيرة، وسكانها أعراب أهل بادية، وكانت قبل ذلك مدينة، وأخبرونا أن أثر البناء باق فيها إلى الآن. وعلى يسار منزلنا خارج المضيق مغاور يقال إن فيها كان شعيب يأوي بغنمه، وبازائه بئر كبيرة

معطلة، وبجانبا بركة، ويقال : إن هناك كانت البئر التي سقى منها موسى عليه السلام غنم شعيب عليه السلام، وفي ذلك الوادي دوم طويل كأنه نخل، صنوان وغير صنوان، وعريش كثير في الوادي، وهو محل مخافة قلماً يخلص من لصوص الأعراب<sup>(١)</sup>.

### عيون القصب :

ثم ارتحلنا من هناك، ونزلنا بعيون القصب، وهو ماء جار، في مضيق بين جبلين، في محل كثير القصب والديس، وفي أعلى الوادي نخل وأرض صالحة للحرث قل ما يخلو ذلك المكان من أعراب نزول به، فيكثر الخوف، ويعظم ضررهم، سيما عند نزول الليل، فطلع أمير الركب ومعه الرماة حتى جاءوا أعلى الوادي فبقوا هناك حتى استسقى الناس كلهم، وأخذوا حاجتهم من الماء وروت الإبل، فرجعوا بعد العشاء.

وعلى شفير الوادي عند منزل الركب مسجد مبني بالحجارة المنحوتة ومنبر يازائه.

### المويلح :

ثم ارتحلنا منه، ونزلنا إلى ساحل البحر، ولم نزل نسايره إلى بندر المويلح، ونزلناه بعد العصر، وماؤه كثير، وفيه آبار كثيرة، وبساتين حسنة ونخل.

وهناك حصن كبير فيه عسكر وأمير، وتخزن فيه الميرة والفول كثيراً، وعلى بابه سوق كبير، يوجد فيها غالباً المحتاج.

وفيه مقاتي كثيرة من دلاع وبطيخ وغير ذلك.

وبه مرسى حسنة تنزل بها السفن القادمة من سويس، والقادمة من جدة، ومن القصير.

---

(١) العياشيّة ١ / ١٦٩ ورحلة أبي مدين عبدالله بن أحمد الروداني الدرعي المتوفى ١١٥٧ وهو ينقل عن العياشي.

وكان الهواء يوم نزولنا فيه ويوم إقامتنا بحرياً بارداً، وبالجملة من يوم خروجننا من مصر إلى المويلح لم نر حراً شديداً.. وكان نزولنا بالمويلح يوم الجمعة الثالث عشر من شوال، الموفي عشرين من ينيه من الشهور العجمية.

وعلى شاطئ البحر قرب منزل الركب على مقرب قبر سيدي محمد والد الشيخ عبدالكريم الفكوني القسطيني، وعليه بناء<sup>(١)</sup>، وقد زرناه، وأقنا هناك يومين، أحدهما مع المصري والآخر بعد ارتحاله.

وهناك أخذ الناس فوهم الذي اكتروا على حمله عرب بني عطية من مصر، ولم يضع لأحد شيء منه، فيخزن الناس هناك ما يحتاجونه في الإياب إلى العقبة، وأكروا على الباقي إلى ينبع، والذين يكرون من هنالك — في الغالب — عرب بلتي، وبلادهم من هناك إلى قرب ينبع حيث بلاد جهينة.

ومن من الله علينا بلقائه هناك رجل من الصالحين من أهل الجذب اسمه الشيخ محمد العبدلي، وأصله من ريف مصر، دنا عليه صاحبنا الشيخ أحمد المجذوب المصري، وأخبرنا أن لهذا الشيخ في هذا المكان أزيد من عشرين سنة فذهب معنا إلى زيارته فوجدناه على سور الحصن، وهو يجمع تراباً بكلتا يديه، فكلمناه، ودعا لنا دعاء كثيراً وقال لنا : حركوا معي هذا التراب، فن حرك حصلت له بركة، فامتثلنا أمره. وهو رجل قد طعن في السن ليس عليه إلا قيص وهو مخلوق الرأس، كلما اجتمع عليه ناس قر منهم، وربما هرول في هروبه من الناس، ثم عاودت إليه آخر اليوم، وزرته أيضاً. وأقنا بالمويلح يومين.

وقال في العودة — يذكر المويلح — : وأتينا المويلح ضحى بعدما اشتد الحر، ولما قربنا من البندر تقدمت أمام الإبل، وملت إلى حائط من نخل لأستريح، فوجدت حارسه رجلاً من المغاربة من زناتة أفريقية، تعوق هنا فأدخلني الحائط وآواني إلى عريش له، حوله جابية ماء بارد، وقدم لي من رطب الحائط، فأكلت وقيلت هناك عنده حتى ذهبت سورة الحر<sup>(٢)</sup>. وبات الركب في المويلح في أرغد عيش.

(١) البناء على القبور محرم شرعاً، لا يفعله إلا الجهال بأحكام الشرع الشريف، وعصر المؤلف عصر جود فكري، في جميع الأقطار الإسلامية، حين كانت الدولة التركية تشيد الأبنية على القبور لجهلها بتعاليم الإسلام، والحمد لله الذي طهر البلاد المقدسة من البدع والخرافات.

(٢) «العياشية» : ٢ / ٣٠٠.

## دار أم السلطان :

ثم ارتحلنا من المويلح يوم الإثنين (١٦ شوال / ٢٣ يونيه) ومررنا بالموضع المسمى بدار أم السلطان ولم ننزل فيه. وتجاوزناه وسلكنا في المضيق المسمى بشقّ العجوز ونزلنا على شاطئ البحر قريباً من منزل الركب المصري، ووجدنا هناك شرذمة من الأعراب يبيعون العلف، وعن يسار منزلنا جبال سلمى وكفافة.

## شق العجوز :

وقال في وصف هذا المكان في عودته :

وفي الغد مررنا بكفافة، فلما قرب الناس من شقّ العجوز ودخل معظم الركب فيه ولم يبق إلا القليل، أغار اللصوص على أواخر الركب، قرب بئر الدويدر، فلم يجدوا هناك جماعة إلا طائفة قليلة من أعراب برقة، ورجلان من أصحابنا ذهبوا لسقي ماء من البئر، فقاتلوهما أشد قتال، وقتل من اللصوص رجلاً، ومع ذلك أخذوا قريباً من الثلاثين بأحماها، ودخلوا في مضيق تلك الشعاب وتعدّروا الغوث (١).

بيد أنه ليس في الركب في هذه السنة من يدفع، بل ولا من ينفع، وكان شيخ الركب سيدي أبو زيان، حفيد سيدي أحمد بن يوسف الملياني، وهو رجل لين، وليست له عصبية قوية، إنما كان يتأخر في بعض الأحيان، هو وفارس آخر من أصحابه، فكان من قدر الله أن ركب في ذلك اليوم على جل، لإراحة فرسه، وتقدم وما رأى الناس قط لَصاً في ليل ولا نهار، من مكة إلى هذا المحل، وكأنهم أمنوا، وقَلّ حذرهم، وساروا حتى جاوزوا (دار أم السلطان) وباتوا.

---

(١) «العياشية» : ٢ / ٢٩٩.

## قبر الكفافي - الأزلَم :

ثم ارتحلنا من هناك يوم العنصرة، ومررنا صباحاً بقبر سيدي مرزوق الكفافي، على ساحل البحر، عليه أعواد قد علّم بها عليه، والناس يتبركون به، ونزلنا ذلك اليوم ببندر الأزلَم<sup>(١)</sup> عند العصر، وبه ثلاثة آبار كبيرة محكمة البناء، وماؤها غزير، إلاّ أنه زعاق، يصلح للإبل وللضرورة الناس من غسل وما أشبهه، ولا يسيغه إلاّ المضطرون، وعلى يسار البندر بعيداً عن الآبار حساء محفور في الأرض، ليس بمطويّ، وماؤه أحسن من ماء الآبار، إلاّ أنه قليل، ولا يعرفه الكثير من الناس، وهذا البندر قليل الجدوى لقبح مائه وقربه من المويلح ومن الوجه، وهما أتمّ منه منفعة، فليس به كبير فائدة، وقد انهدّ ما في داخله من البيوت وتثّل بعض صورته<sup>(٢)</sup>، والخلاء أقرب إليه من العمارة :

إذا لم يكن فيكَنَ ظلّ ولا جنى  
فأبعدكَنَ الله من شجرات

## اصطبل عنتر :

ثم ارتحلنا من الأزلَم<sup>(١)</sup>، ومررنا بين جبلين، وسرنا في مضايق وعقاب صغار، إلى أن وصلنا المكان المسمى اصطبل عنتر عند العرب، وفيه ثلاثة آبار محكمة البناء، بحجر منحوت، وماؤها حلو إلى الغاية إلاّ أنه ضنين، أنزحته الدلاء بسرعة، وبات الناس ليلتهم يتبرضونه تبرّضاً، ولأياً بلأى ما كفاهم للشرب، ولم ترد منه الإبل<sup>(٣)</sup>.

(١) كذا والصواب : (الأزلَم).

(٢) يقصد «سورة» بالسّين.

(٣) «العياشية» : ١ / ١٧٣.

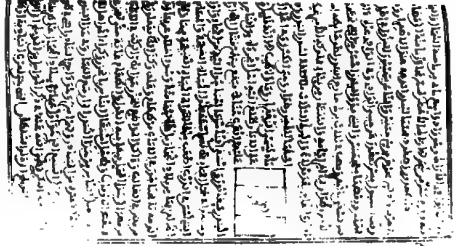
## وادي الأراك — الوجه :

ثم ارتحلنا منه، ومررنا بوادي الأراك، وهو واد واسع يأتي من ناحية الشمال، والبحر من يمينه قريباً منه وفيه كثير من شجر الأراك الأخضر الناعم، ثم تجاوزنا منه إلى مضائق بين فدادف وأجبل ذات حدور<sup>(١)</sup> وصعود.

فجئنا لبندر الوجه عند الاصفرار، وفيه حصن حصين، في جوف واد كبير، يخرج من بين جبلين، والناس يتهبون النزول في أصل الوادي إذا كان وقت السيول فيرتفعون عن جنبي الوادي.

وفي الوادي عدة آبار بعضها حسن — بمهملتين — وبعضها بمعجمتين<sup>(٢)</sup>، والتي فوق البندر أحسن من التي تحته، وداخل البندر بئر تسقى بالبقر، وتصب في ثلاث برك خارج البندر، لصق حائطه، إحداها من بناء الأمير رضوان في آخر أيامه، والشتان من بناء مملوكه الأمير غيطاس، عام تولى إمارة الحاج بعد مولاه، والبرك الثلاث ملاصقة لسور البندر وصورتها :

أوسطها للأمير رضوان وهي الكبرى وفي أعلى الوادي بين الجبلين ماء يسمى الزعفران، وماؤه طيب إلا أنه قليل، فإذا كثر الزحام على الآبار طلع إليه أهل الجرأة من الناس، وربما



هجمت عليهم العرب فيقع منهم قتال، إلا أن الموضع قريب من البندر فيغاثون.

واستقى الناس ما احتاجوا إليه من الماء وأوردوا إبلهم، وبالغوا في حمل الماء، لأنهم استقبلوا المياه القبيحة، والمسافة العريضة، التي ليس في الدرب أصعب منها، لتوالي المياه القبيحة فيها، وبعد العمارة وشدة الحر، لقرها من بلاد الحجاز، بل غالبها منه، وسوء أخلاق عربا وخزن الناس في بندر الوجه ما

(١) في الأصل: «حدور» وفي الناصرية : حضور.

(٢) يقصد : خشن — أى غير عذبة الماء.

يحتاجون في الإياب من طعام وعلف، وكذلك يفعلون في كلّ بندر مروا به من مصر في الغالب.

وَأَكَّدَ المواضع للخزن هذا، لأنّ الركب في الإياب قد يسبق الملاقى من مصر إلى هذا المحل، فيغلى فيه الفول والطعام غاية حتى تعجز عنه الأثمان في بعض الأوقات، ولأجل اشتغال الناس بالخزن وكراء المواصل (؟) لطرح الأمتعة تأخر رحيل الناس من هذا البندر إلى أن متع النهار.

وفي هذا البندر طائفة من العسكر كغيره من البنادر، ولهم أمير، وهو آخر البنادر التي في طريق الدرب وليس بعده عمارة إلى الينبع الذي هو أول عمارة ببلاد الحجاز على طريقنا.

### أكرة :

ثم ارتحلنا من الوجه، بعدما وقع اختلاف بين مشايخ الركب في الرحيل والقيلولة، فتبع الآخر منهم الأول، وارتحل الناس جميعاً، ولما تجاوزنا البندر وغاب عن أعيننا ظهر بعض الحرامية لآخر الركب ورموهم بمكحلة<sup>(١)</sup>، فتصايح الناس فدفع الله كيدهم، ولم نر أحداً منهم قبل ذلك، ثم بتنا تلك الليلة دون الأكرة، وفي الغد مررنا بالأكرة ظهراً، وهو واد كبير، تأتيه السيول من بلاد بعيدة، يذكر أن سيل المدينة المشرفة يصل إليه، وماؤه قبيح جداً إلا أن يكون عقب سيل فيحسن، وبه آبار كثيرة، وأشجار ملتفة، والآبار المحفورة في ذلك اليوم أجود من القديمة، فأخذ الناس من مائه ما اضطروا إليه، وسقوا إبلهم وتجاوزوه بنحو فرسخين فباتوا.

### بين الدركين :

وبالغد مررنا بالموضع المسمى بين الدركين ظهراً، وهو منزل الحاج المصري، وإنما سمي بذلك لأنه بين درك أعراب مصر وأعراب الحجاز، فإن مابعده من عمل الحجاز وفي درك أمرائه.

---

(١) المكحلة : بندقية تحشى بالبارود تسمى في نجد (فتيل).

## العقبة السوداء :

ولم نبت ذلك اليوم إلا بقرب العقبة السوداء، وتلك المرحلة والتي قبلها يشتد فيها الحرّ، وهي أرض سهلة مطمئنة ليس فيها جبال إلا ما يتراءى عن شمال المارّ بها، والبحر يتراءى عن يمينه، وفيها غياض من شجر الطلح وهي من أنواع الكلأ الذي ترعاه الإبل كثيراً، إلا أن الناس لا يتركون الإبل للرعي، فإن المحلّ غوف تغير فيه أعراب بلّي وجهينة وغيرهما.

## الخوراء :

ثم ارتحلنا ونزلنا من العقبة السوداء عند طلوع الشمس، وهي عقبة صغيرة في أرض سوداء ذات أحجار وأشجار، ويقال إنها أول أرض الحجاز ولا يبعد ذلك، فإن من هنالك تحالف الأرض ما قبلها، وتباين الجبال ما سواها، ويشتدّ شهبها بجبال الحجاز السود، ويتقوى الحرّ، وتستمرل الأرض، فسرنا محاذين للبحر إلى أن نزلنا الخوراء ضحى، وقال الناس فيها، وتفرقوا بين تلك الأشجار على ساحل البحر، ومياهها حقائق على ساحل البحر، يحيط بها ديس كثير، وفيه ملوحة قليلة، والقريب العهد بالحفر أجود من غيره، وكلما طال في القرب خبث، والإكثار منه يورث إسهالاً مفرطاً كماء الأكرة والأزلم<sup>(١)</sup>، وعجروء، فلما وردت الإبل وأخذ الناس حاجتهم من الماء ارتحلوا ظهراً.

## وادي العقيق :

فلما أخذ الناس حاجتهم من الماء — ماء الخوراء — ارتحلوا ظهراً وطلعنا مع واديه الكثير الأشجار، من أراك وغيره، إلى أن ارتفعنا فعدلنا يميناً إلى الوادي المسمى على السنة الحجاج وادي العقيق، ولا مناسبة بين الاسم والمسمى، بل تسميته بوادي العقوق أنسب، لشدة جرأة أعرابه على السرقة، فهم من أجرأ الناس على ذلك.

---

(١) كذا كتبها هنا وتقدم (الأزلام خطأ).

ومن أمثال الحاج : لارجال إلآ رجال الحوراء، ولا جمال إلآ جمال الدوراء،  
يعنون بالدوراء الرجعة، يعني لايعد صابراً من الجمال إلآ من صبر في حال  
الرجوع من الحجاز إذ هو آخر السفر، وعمل قلة العلف. ولم نبت تلك الليلة إلى  
أن توسطنا الوادي.

### النبط :

ثم ارتحلنا أول يوم من يناير — من وادي العقيق — وجئنا إلى وادي  
التبّط<sup>(١)</sup> وقت الظهر، وفيه آبار أربعة محكمة البناء بالحجر المنحوت، وماؤها  
عذب حلو غزير في الغالب، وغزارة مياه أودية الدرب إنما تكون بحسب كثرة  
المطر وقلته، فإذا حمل الوادي ولو مرة في السنة غزر الماء سائر السنة. وقد نزل  
الناس بهذا الوادي إلى أن سقوا واستقوا فارتحلوا بعد العصر، وتراءت لهم حرامية  
فوق الجبل وتصايح الناس واجتمعوا ففروا أمامهم. ثم سرنا هنيهة ونزلنا قريباً  
منه بنحو فرسخ.

### وادي النار :

ثم ارتحلنا غداً، وسلكننا في وادي النار، وهبت علينا ريح غربية كانت أول  
النهار باردة، ووسطه وآخره سموماً، لقي الناس منها شدة، ولم يروا أشد منه<sup>(٢)</sup>  
قبله ولا يرونه — إن شاء الله — بعده، وألجأ الحرّ الناس إلى القيلولة قهراً من  
غير اتفاق منهم على ذلك، فكل من وجد صخرة أو شجرة التجأ إليها، وأناخوا  
الإبل، ولم يحطوا عنها الأحمال فكانت القيلولة أشد عليهم من السير، فلما استراحوا  
قليلاً وأبى الحرّ أن يخفّ ارتحل الناس، وساروا في سموم وحرّ شديد، لايزيد مع  
العشي إلآ شدة.

### الخصيرة :

وجئنا إلى الخصيرة محل نزول المصري عند غروب الشمس، وتجاوزناه، وسرنا  
إلى العشاء.

---

(١) يعرف باسم نبط بدون تعريف.

## الوعرات :

وقطعنا ثلاثاً من الوعرات السبع، المسماة على السنة الحجاج بسبع وعرات، ثم بتنا والحرّ لا يزيد إلا شدة فأشفق الناس من ذلك لقلّة الماء.

وهذا الوادي قد طابق الاسم فيه المسمى، قلماً تخلو سنة من شدة تقع للحجاج فيه، بحرّ أو عطش أو محاربين، وهو واد كبير ضيق بين جبلين لاسعة فيه، من النبط إلى الخضير، فإذا متع النهار واشتد الحرّ حجبت الجبال عنه الهواء البحري، فينعكس غرباً أو شرقاً، صاعداً من الوادي، أو منهبطاً، فيصير سموماً محرّقا ولا ماء هناك من النبط إلى الينبوع، فرمّا أتلّف الناس فيه عطش مهلك وربما أحدث ذلك سُميّةً في الأبدان بقبح الهواء مع حرارته، فيموت المئون، بل الألف<sup>(١)</sup> من الخلق في أسرع مدّة، ويأخذ الرجل الماء فلا يضعه من يده حتى يموت، ووقع ذلك كثير إنما هو في الإياب، وفي الركب المصري أكثر. وقد حضرنا لطف الله فلم نر هذه السنة بأساً مع شدة الحرّ وإفراطه فلم يمت أحد.

## الينبوع (ينبع) :

ثم ارتحلنا من هناك قبيل الفجر وقطعنا ما بقي من الوعرات، فنظر الله إلى وفده نظر رحمة، فانقلب الهواء مجرياً، وخرجنا إلى متسع من الأرض جالت في أرجائه أرواح معتدلة، فانطفئت جرة الحرّ بعض انطفاء. ولولا ذلك لهلك الناس، فقد قلّ ماؤهم، وتأخر بعض الإبل من شدة العطش، فخرج عليهم اللصوص بعدما قاربنا الينبوع<sup>(٢)</sup>، فتصايح الناس، ورجعوا إليهم، فلما أعجلوهم نَحروا الجمل، وفرّوا إلى الجبل، وقصدهم في ذلك أن يبقى لهم لحم الإبل لعلمهم أن الناس لا يأخذونه.

وجئنا إلى بلد الينبوع ظهرأ، واستبشر الناس بقدومها لأنها أول بلاد الحجاز العامرة، وفيها قرى كثيرة، ومزارع ونخيل وعيون جارية، وفيها عامل لأمير مكة السلطان زيد.

(١) كذا يكتب المتقدمون كلمة (الالاف).

(٢) كذا في كتب كثير من المتأخرين والصواب (ينبع).

وقد أخبر بعض من طلع مع وادي الينبوع أن عمرانه متصل نحو ثلاثة أيام، والقرية التي بها الركب هي آخر القرى التي من ناحية البحر، وليس بعدها إلا ينبوع البحر الذي هو المرسى، وغالب أهل القرى يأتون إلى هذه القرية التي ينزل بها الحاج للتسوق، وتعمر هناك سوق كبيرة يوجد فيها غالب المحتاج، وتجلب إليها البضائع والسلع ذوات الأثمان، ويجلب إليها من الثمار والفواكه والحبوب والفلول شيء كثير.

وكان نزولنا بها في أول وقت جذاذ النخل، وأكلنا بها رطباً جيداً، وبتنا بها ليلتين ريثما أصلح الناس من بعض شأنهم، وأخذوا من العرب أكربتهم التي بعثوها من المويلح، وكان الكراء منه إلى هنا بسبعة قروش ونصف، ومن مصر إلى المويلح سبعة قروش وثلاث.

وأدركنا المصري هناك، وبتنا معه ليلة ثم ارتحل، وبتنا وراءه ليلة أخرى. وهناك وجدنا أخبار مكة والمدينة وسائر بلاد الحجاز وتعرفنا خبر رخصها وغلائها وخصبها ويسها.

ومن هناك تجلب الميرة إلى المدينة، فإن السفن الجالبة للطعام من مصر ما كان منها إلى المدينة يرسي بينبع<sup>(١)</sup> البحر وما كان منها لمكة يتجاوز إلى جدة، فإذا وصل الطعام إلى الينبوع حل منه إلى المدينة، تحمله أعراب تلك الناحية من بني سالم وجهينة، ويتدركون بالطريق من هناك إلى المدينة.

وقد خزن الناس هنا أيضاً من الفول والزاد ما يحتاجونه في الإياب.

### جبل رضوى :

وأكبر جبال تلك البلاد جبل رضوى وهو المشرف على بلاد الينبوع، وليس هو الجبل الصغير الذي بجانب الينبوع، بل هو الجبل الكبير المشرف عليه.

والى هذا البلد كانت غزوة العشيرة من غزواته صلى الله عليه وسلم،

---

(١) كذا وتقدم (ينبوع) وكذا فيما نقله أبو مدين عنه.

ومسجد القرية الآن هو مسجد العشيرة الممدود في المساجد التي صلى فيها النبي صلى الله عليه وسلم، قال السيد السمهودي مانقته : ومسجد العشيرة معروف ببطن الينبوع، وهو مسجد القرية التي ينزلها الحاج المصري، ولابن زباله أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى في مسجد ينبوع(؟) بعين بولا.

قلت : وعنده أيضاً عين جارية، لكنها لا تعرف بهذا الاسم.

وقد دخلنا هذا المسجد وتوضأنا من هذه العين، وكان نزولنا تحت القرية، وجعلنا خباءنا تحت المزاراة التي على التل المرتفع. وقد تقدم أنها لأبي الحسن النفاتي<sup>(١)</sup>.

وفي ينبوع أيضاً قبر الحسن المثلث، فوق القرية ولم نصل إليه لبعده.... وفي هذا البلد موطن طائفة من الأشراف، ومنهم شرفاء بلدنا القاطنين بسجلماسة.

### السقائف(دار الوقدة) :

ثم ارتحلنا من ينبوع وسرنا يومنا في رمال ليست بالقوية، وأشجار قليلة إلى أن نزلنا بموضع يسمى السقائف(؟) ويقال له دار الوقدة، يقدون فيها الشمع الكبير، يستصحبه الناس معهم من مصر لذلك ويبيعونه في الركب، ويجعلونه على أقتاب الجمال بالليل، فترى الركب كله كأنه من أعظم المساجد المسرجة مصابيحها في أحد المواسم، وشاع عندهم أن الصحابة في غزوة بدر أوقدوا هنا نيراناً كثيرة فنحن نتشبه بهم. وتلك غفلة منهم وخطأ من وجهين : أحدهما أن وقوع الأمر بإيقاد النيران إنما كان في غزوة الفتح بمز الظهران كما هو معروف في كتب السير، وأما بدر فلم يقل فيها أحد ذلك. وثانيها : لو سلم أن ذلك وقع فيها فقد كان لإرهاب العدو وإظهار قوة المسلمين، وكثرة عددهم، فحيث لاعدو فلا معنى له، ولاشك أن الفرح بنصر الله أوليائه على أعدائه والاستبشار

(١) أبو الحسن النفاتي : أخر محمد النفاتي التونسي كان قاضي القدس عندما زارها العياشي(١/٩٠) وذكر عنه خرافات نقلها عن أخيه وقال : (وقد أخبرني عن أخيه بأمور من جنس هذا في سفرته تلك، وفيها توفي بقرية الينبع التي ينزلها الحاج، وقبره إلى الآن ظاهر، وعليه بناء ضعيف على تل مشرف، بجري منزل الركب المغربي بالينبع). (ج ١ ص ٢٦١) وكان أبو الحسن النفاتي أمير الركب(١/٦١)، وحج معه أخوه القاضي محمد وهو صغير(١/٦١).

بالأماكن التي أعزَّ الله فيها الإسلام أمر مطلوب مستحسن، مالم يؤدَّ ذلك إلى محذور، مثل اعتقاد أن الوقود سنة متبعة، بل ربما ظن بعضهم أنها من أفعال الحج، فلتعظم بغير ذلك من فرح وسرور وصدقة وعبادة وإعلان بشكر. وقد جاءني كثير ممن لا شمع عنده يستفتون ويقولون : لاشمع عندنا فهل يلزمنا شراؤه ممن هو عنده؟ ظانين أن ذلك من مناسك حجهم وشعائره، وكم مثلها من بدعة محدثة يرى الناس أنها من أعظم القربات، نسأل الله أن يمتتنا على سنة النبي المستقيمة لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً.

بدر :

ثم ارتحلنا من دار الوقدة ومررنا بعد طلوع الشمس تحت جبل الرمل الكبير المشرف على بدر، بينه وبين الجبل الآخر الأيمن.

وكنت ممن تحشم الطلوع إلى أعلى الجبل رجاء سماع ما يؤثر أنه يسمع هناك من صوت الطبل، ولم أسمع شيئاً، وقد زعم كثير من الحجاج أنهم سمعوه.

لطيفة :

وقد ذكر الإمام ابن مرزوق في شرحه على «البردة» مانصه : ومن الآيات ببدر الباقية ما كنت أسمعه من غير واحد من الحجاج أنهم إذا اجتازوا بذلك الموضع يسمعون كهيئة طبل ملوك الوقت، ويرون أن ذلك لنصر أهل الإيمان قال: وربما أنكرت ذلك، وربما تأولته بأن الموضع لعله صلب فيستجيب(?) فيه حوافر الدواب. وكان يقال لي : إنه دعس رمل غير صلب، وغالب ما يسير هناك الإبل، وأخفافها لاتصوت في الأرض الصلبة، فكيف بالرمال. قال : ثم لمَّا منَّ الله تعالى بالوصول إلى ذلك الموضع المشرف نزلت عن الراحلة أمشي، وببيدي عود طويل من شجر السعدان<sup>(١)</sup>، المسمى بأمر غيلان، وقد نسيت ذلك الخبر الذي كنت أسمع، فما راعني وأنا أسير في الهاجرة إلّا واحد من عبيد الأعراب الجمالين يقول : تسمعون الطبل! فأخذتني — لمَّا سمعت كلامه — قشعريرة بيّنة، وتذكّرت ما كنت أخبرت به، وكان في الجو بعض ريح

(١) السعدان في نجد عشب ذو شوكة وليس شجرة.

فسمعت صوت الطبل وأنا داهش(?) مما أصابني من الفرح أو الهيبة أو ما الله أعلم به، فشككت وقلت : لعل الريح سكنت في هذا الذي في يدي وحدث مثل الصوت، وأنا حريص على طلب التحقيق بهذه الآية العظيمة، فألقيت العود من يدي وجلست إلى الأرض، أو وثبت قائماً، أو فعلت جميع ذلك، فسمعت صوت الطبل سماعاً محققاً، أو صوتاً لا أشك أنه صوت طبل وذلك من ناحية<sup>(١)</sup> (....) ونحن سائرون إلى مكة المشرفة، ثم نزلنا ببدر فظللنا نسمع ذلك الصوت، يومي أجمع، المرة بعد المرة، قال : ولقد أخبرت أن ذلك الصوت لا يسمعه جميع الناس.

وقال الإمام المرجاني رحمه الله تعالى : وضربت (طبلخانة) النصر ببدر فهي تضرب إلى يوم القيامة، نقله عنه السيد السهمودي في تاريخه الكبير والصغير<sup>(٢)</sup> .

قلت : وقد كثر كلام الناس في هذه المسألة، وإذا ذكر من يوثق به كابن مرزوق وغيره أنهم سمعوه فالصحيح أن بعض الناس يسمعه دون بعض. وقد مررت ببدر سبع مرات وأنا في كلها ألقى البال لذلك فلم أسمع شيئاً أتحققه، وفي هذه المرة سمعنا بعد ما قربنا من البندر صوت طبل محقق، فإذا هو طبل بعض أمراء الركب كان متأخراً وراءنا، وتحققنا ذلك بجلوسنا حتى مررنا، وكثير من الناس ممن لم يتحقق ذلك زعم أنها (الطبلخانة) المذكورة. وقد سألت عن هذه المسألة محقق زمانه شيخنا سيدي أبا بكر السجستاني(ض) فقال لي : كنت حريصاً على تحقيق ذلك، وقد مررت ببدر نحواً من سبع وعشرين مرة فلم أسمع شيئاً أتحققه، والعلم عند الله.

قلت : وهذه المسألة مثل ما شاع على ألسنة الحجاج أنهم يرون الأنوار مشرقة من يوم قرهم من ينبوع. ويقولون : إن وادي النار اسمه وادي النور لأجل رؤيتها منه، فحرف الناس التسمية. وقد ألقيت البال لذلك فكلما قالوا : إنهم رأوا الأنوار نظرنا فإذا هو بروق تحفك في بلاد بعيدة، وتحققنا ذلك بظهوره مرّات كثيرة في غير ناحية المدينة، وتارة في ناحيتها، ويتصل خفقانه حتى يقرب إلينا

(١) بياض في الأصل. في الحاشية : (بياض بالأصل كذا وكتب عليه البعض لعله من ناحية الجبل الذي هو بالعدوة الدنيا والله أعلم) وفي «الناصرية» من ناحية اليمن ونحن سائرون الخ...

(٢) يقصد «وفاء الوفاء» و«خلاصة الوفاء».

فنتحقق أنه بريق، أو تظهر أمارات آخر تحقق ذلك، مثل رؤية غيم متراكم وأصوات رعد. وأرض الحجاز معروفة بكثرة البرق، وكثير من الحجاج يصمّمون على أنها أنوار ولو ظهرت الأمارات ولو كان من غير ناحية المدينة<sup>(١)</sup>. وقد سألت أيضاً شيخنا أبا بكر السجستاني — رضي الله عنه — : عن هذا فقال لي كنت أتأمل ذلك كثيراً فلم أَر شيئاً مما يزعمه الحجاج إلا البرق، نعم قال لنا (ض) : الذي لا يمتري فيه أنه نور النبي صلى الله عليه وسلم حقيقة — وإن كانت جميع الأنوار من نوره — ما عايناه مراراً ونحن مجاورون بالمدينة المشرفة، في الحرم الشريف، فإننا نجلس أحياناً نهاراً حتى يستفيض من ناحية الحجرة ما يخالف ضوء النهار، فيغشى الحرم كله فيراه الناس. قلت : ولعل هذا الذي ذكر شيخنا رضي الله عنه خاص أيضاً به وبأمثاله ممن تنوّرت بصائرهم فاستنارت بها أبصارهم، فيشاهدون الأنوار المعنوية محسوسة، وإلا فكثير من الناس لا يشاهدون ذلك (والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم).

وفي آخر المضيق الذي بين الرمل والجبل عريش إلى الآن، يزعم الناس أنه موضع العريش الذي بني للنبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر، وأن ذلك موضع الواقعة (?) وليس به.

ونزلنا بداراً ضحى، بعدما حمى النهار، وهي قرية حسنة، ذات نخيل وماء عذب، فيه بركة كبيرة تكفي الأركاب كلها ومادتها من عين هناك، وعلى ذلك البلد أنوار تلوح، ورياح النصر تغدو وتروح، وينشرح فيه الصدر والقلب، ويتجلى فيه بصفة الجمال لكل مسلم الرب، سبحانه وتعالى، ومعالم النبوة لاتخفى، ومواطن أقدام الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه لاتعفى.

وقد ظهرت على أهل هذا البلد بركة الرسول معلنين بذلك، فأسعارها — في الغالب — أرخص من غيرها مع صغرها، وانقطاعها عن البلاد، وأهلها محفوظون، آمنون، مطمئنون، مع سوء أخلاق عرب صبح المجاورين لهم.

(١) في الهامش : (هب أن كلا من صوت الطبل والنور تحقق، ماذا كنا نصنع بذلك؟ ألم يغتنا الله بكتابه وسنة رسوله؟) بالقلم والكتاب مطبوع.

وكان نزولنا خارج البلد بينه وبين الجبل، بالقرب من مقابر الشهداء، وقد زرناهم في محلهم، وعليهم جدار قصير يحيط بقبورهم. وبالقرب منهم قبور السادة الأشراف الزيدية من أهل اليمن، نزل أسلافهم بهذا البلد، ولهم أتباع في طريق القوم ومجلس ذكر، وكبيرهم اليوم السيد الغيث وقد زرته ودعا لي.

### مسجد الغمامة :

وزرنا المسجد المسمى بمسجد الغمامة، وهو موضع العريش يوم الواقعة ببدر، كما نص عليه غير واحد.

وانشרכת صدورنا بالمشي في أزقة القرية، وبين بساطتها المشرقة النضرة كأنما نخلها من شدة خضرته ونعومته وإشراق عراجين الثمار المصفرة والمحمرة بينها أغصان شجرة طوبى، ولم نأل جهداً ما سرنا في أرجائها وجلنا في أقطارها عسى أن تطفأ أقدامنا في موطن قدم أحد أصحاب الرسول، ولو تحققنا موضع قدم واحد منهم لكان ثمة بالوجه غاية المنى والى.

وقد بتنا ببدر تلك الليلة، وكانت العادة أن الركب الشامي ينزل علينا هناك بالليل فلم ينزل وتأخر.

وقد خزن الناس ببدر أيضاً ما يحتاج إليه من طعام وعلف مما يحتاج إليه من بدر إلى المدينة المشرفة وإلى ينبوع في الإياب، وكان خزينا نحن عند رجل اسمه الشيخ حسن بن عليان، والغالب عليه أنه من أهل الخير.

### البزواء :

ثم ارتحلنا من بدر، وهبت علينا ريح باردة استمرت ذلك اليوم وغداً، وتجاوزنا السبيل الأول الذي بالبزوة<sup>(١)</sup> ظهراً.

### سبيل محسن :

ثم مررنا على سبيل محسن عشاء، وبتنا.

---

(١) هي البزواء.

## مستورة :

وفي الغد مررنا ضحى بقرية تسمى مستيرة<sup>(١)</sup> ، وفيها بئر كبيرة مطوية بالحجر المنحوت، إلا أن الرمل قد غلب عليها، وحولها عمارة قليلة، وها قبر يزار، عليه بناء اسم صاحبه الشيخ يحيى، قالوا إنه شريف من أهل اليمن، وفي الروضة قيم يأخذ صدقات ذلك الشيخ.

## رابع :

وسرنا يومنا ، ونزلنا براغ بعد المغرب وبتنا، ووجدنا به بركة كبيرة قد بنيت هناك مملوءة ماء، أعانت الناس في سقي الإبل، وفيها يحتاجون إليه في إحرامهم من غسل ثياب واغتسال.

وهي قرية فيها نخيل وآبار كثيرة، في واد يأتي إليه السيل من بعيد، وتزرع فيه مقاثي كثيرة، ودخن وذرة وهو من أخصب أودية الحجاز.

ثم اشتغل الناس بغسل الثياب والاعتسال للإحرام، وشراء النعال، توجد هناك معدة للمحرمين إلا أنها غالية، ولم يتيسر الرحيل إلا بعد الزوال.

## الرمال :

فرحلنا وخرجنا عن القرية، وبرزنا إلى البرية، وصلينا الظهر جماعة، ثم ركعتي الإحرام، ثم أحرمنا ملّين بالحج مفرداً، محافظين على استحضار النية، والمتابعة على التلبية...

وتابعنا السير... وجاوزنا الرمال التي يتيه فيها الركب في بعض الأحيان بين العشائين فلما خرجنا إلى الأرض الصلبة أنحنّا وبتنا إلى الصباح<sup>(٢)</sup> .

(١) في الهامش : (خ : مستيرة) وهي مستورة الآن.

(٢) «العياشية» ١ / ١٨٥.

هرشى :

ثم ارتحلنا — من بعد الرمال — وأخذنا بطن هرشى (١) التي يقول فيها  
الشاعر :

خذوا بطن هرشى أو قفهاها فإنما  
كلا جانبي هرشى لمن طريق

قديد :

ومررنا بقديد، وهي قرية غالب أبنيتها حيشان، وفيها فول وفواكه تباع، ولا  
ماء بها إلا ما يستقى من بعيد.

المشلل :

وسألنا عن موضع مناة الذي بالمشلل حذو قديد هل يعرفه أحد؟ فلم نجد  
أحداً يعرفه، والحمد لله الذي هدم رسوم الطواغيت حتى لا يبقى أحد يعرف حتى  
أمكنها.

وقد أدركتنا القيلولة بجانب قديد فقلنا هناك إلى أن زالت الشمس، فارتحلنا  
ومررنا بأرض ذات مزارع كثيرة ومقاثي، إلا أن زراعتها إنما هي إذا جاء السيل  
وأكثر المقاثي في بلاد الحجاز إنما تزرع على ماء المطر في الأماكن التي يستنفع  
بها الماء. وقد أخبرنا أن كثيراً منها ينبت في البرية من غير استنبات، وبها دلاءع  
جيد رخيص، ويسمونه بلغتهم ححب، ولا يكاد ينقطع شتاء ولا صيفاً، إلا في  
السنة الجدية.

عقبة السكر :

ثم صلينا العصر في الموضع المسمى بعقبة السكر، وأكثر الناس خصوصاً  
المصارية يجلبون السكر من مصر بالقصد ليشربوه هناك، ويأثرون في ذلك أثراً  
لا أصل له، يزعمون أن رمل ذلك المحل قد انقلب للصحابة سكرًا فشربوه، وهي

(١) هرشى قبل رابع، وليست هنا وهذا خطأ وقع فيه كثير من الرحالين.

عقبة في جبل صغير، فيها رمل يتعب الإبل وقد سوي البناء في جانبها، والتقطت أحجارها، وبني مسجد صغير بأحد جانبيها، وبينها وبين خليص نحو من ثلاثة أميال.

### خليص :

فبلغنا إلى خليص عند المغرب، ونزلنا به، وفيه عين ماء تجري، وأبنية وقهاوى، وسوق، وقد سيق الماء في قنوات محكمات من العين، يفجر عنها في مواضع للسقي والوضوء، إلى أن خرج الماء إلى بركة عظيمة تحت القرية، لم أر أحلى منها ولا أعظم، يفرق فيها من لا يحسن العوم، ويخرج الماء من البركة إلى مزارع قرية من البلد.

وبات الناس بجانب هذه البركة في أرغد عيش بسبب الماء الحلو الغزير، وسقوا واستقوا وتوضأوا بلا كلفة في ذلك ولا مشقة.

### ثنية عسفان :

ثم ارتحلنا — من خليص — غداً بعد الفجر ومررنا في غيضة كبيرة ذات أشجار ملتفة<sup>(١)</sup> من أثل وغيره، وفي خلالها فدادين(?) يزرع فيها المقائي والدخن وغير ذلك. وسرنا حتى مررنا بالثنية التي يهبط منها إلى عسفان، والطريق فيها مبنية ملتقطة أحجارها كعقبة السكر إلا أن هذه أطول منها وأسهل، وبأحد جانبيها مسجد.

### عسفان :

فلما خرجنا من العقبة وصلنا إلى قرية عسفان قريباً من الظهر وفيها سوق وآبار متعددة، من جملتها البئر التي يذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم تفل فيها، وماؤها حلو غاية، فشربنا منه تبركاً بآثاره صلى الله عليه وسلم ولم ننزل بقرية عسفان، بل صلينا الظهر في مسجدتها.

---

(١) انظر عنها «مغازي الواقدي» في صفة طريق الرسول صلى الله عليه وسلم وهذا المكان هو الكديد.

## برقة :

وسرنا، ومررنا بالأرض المسماة برقة، وهي أرض طيبة، فيها مزارع ومقاثي، وصلينا بها العصر، ثم مررنا بالمسيل الذي بآخرها وصلينا بها المغرب.

## وادي العميان :

وسرنا إلى أن ذهب هزيع من الليل، ونزلنا قبل الوصول إلى وادي العميان، وسمي بذلك لكون الفقراء يتعرضون فيه للركبان طلباً للصدقة.

## مرّ الظهران :

ثم ارتحلنا منه صباحاً وجئنا إلى مرّ الظهران ضحى، وهو المسمى بوادي الشريف، وهو واد كبير، فيه قرى متعددة، ذات نخيل وبساتين وعيون تجري، أعظمها القرية التي ينزل بها الحاج، وفيها سوق وعين كبيرة، وبساتين موفقة، وجدنا الثمار بها مزهوة، فالقلوب بالنظر إلى نضارتها مجلوة، مع ماغمرها من السرور بقرب الديار، ومشاهدة الآثار، فوقفنا هناك هنيهة ريثما روت الإبل، وتغذى الناس، وحصل الإيناس.

## سرف :

ولما قضينا الوطر من الوادي، وبدت من أعلام القرب الهوادي، أراد بعض الناس من شدة القيلولة<sup>(١)</sup>، وقوي شوق الآخرين فشدوا الحمولة، وكنا ممن قوي عزمه على السير، ورأى أن مقاساة الحرّ في جنب مايطلبه يسير، فسرنا يومنا ونسمات الوصال تهب علينا، وبشائر التلاقي تترادف إلينا.

ومررنا بسرف، وبه قبر أم المؤمنين ميمونة رضي الله عنها، توفيت بهذا الوادي، وكان من غريب الاتفاق أن بنى بها صلى الله عليه وسلم، وكان تزوجها بمكة وهو محرم في عمرة القضية، وبنى بها بسرف في رجوعه، وعلى قبرها بناء<sup>(٢)</sup>، ومسجد قد تهدمت جوانبه.

(١) كذا وفيه سقط ولعله (المقام من شدة).

(٢) البناء على القبور محرم شرعاً، وقد طهر الله هذه البقاع المباركة من ذلك في عهدنا المبارك الميمون.

## التنعم :

ثم تجاوزنا وجئنا إلى التنعم ظهوراً حيث المسجد المنسوب لعائشة رضي الله عنها، بني بالمكان الذي أحرمت منه بالعمرة مع أخيها عبدالرحمن بأمر النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع، ومن ذلك المكان يحرم الناس بالعمرة في المواسم وغيرها وهو أدنى الحل، حتى صار يطلق على المكان اسم العمرة، تسمية للشيء باسم مايقع فيه، كأحد التأويلات في قوله تعالى : (لهدمت صوامع وبيع وصلوات) أي أماكن صلوات، أي سميت الأماكن بالصلوات تسمية للشيء باسم مايقع فيه.

## الزاهر :

ثم تجاوزنا إلى المكان المسمى بالزاهر، ويسمى جنان مكة، وبه آبار وأشجار، خضرات(؟) وقبر يذكر أنه قبر الصحابي الإمام عبدالله بن عمر رضي الله عنه، فقد صح أنه مات بمكة بعد الحج، فقيل : إنه دفن خارجها بوصية منه كراهية أن يدفن في البلد الذي هاجر منه، فن قائل : إنه بهذا الوادي ومن قائل : إنه بالوادي الذي بطرف المحصب، وهو الذي شهره كثير من الناس، إلا أنه ليس هناك قبر ينسب إليه.

## ذو طوى :

وأكثر الناس اغتسل بهذا المكان لدخول مكة اقتداء بمن قال : إن هذا هو ذو طوى الذي بات فيه النبي صلى الله عليه وسلم واغتسل فيه. واستحب أكثر العلماء الاغتسال فيه.

والتحقيق ما عليه كثير من المؤرخين أن ذا طوى أمام هذا وليس بينه وبين مكة واد آخر، وهو الوادي الذي وراء قعيقعان، وبأسفله الموضع المسمى بالشبيكة، حيث الثنية السفلى التي يخرج منها الحاج، فأعلى هذا الوادي هو ذو طوى، وأسفله هو الشبيكة، ولم نغتسل نحن بالزاهر، فقد أخذنا ماءنا في القرب إلى أن جئنا ذا طوى، وأنحنا الرواحل حتى اغتسلنا غسلاً خفيفاً، كما هو سنة الحرم، وصلينا العصر هناك وسرنا عامدين مكة المشرفة، ودخلنا من باب المعلى

وهو الثنية العليا التي دخل منها صلى الله عليه وسلم المسماة بـ(كدا) بالفتح، وقد بالغ الولاة في حفر هذه الثنية، وتنقيتها من الأحجار، حتى صارت كأحد الأزقة، ومع ذلك ففيها صعوبة، ومنها يشرف على مقبرة مكة المسماة بالحجون، وهي أحد المقابر التي تضيء لأهل السماء كما تضيء الكواكب لأهل الأرض، كما ورد في الأحاديث.

**ففي مكة المكرمة**



## في مكة المكرمة

دخلنا مكة عشية يوم السبت خامس يوم من ذي الحجة، وأول يوم من السَّمَاءِ - كفانا الله شرَّ حرَّها - ، ودخل الركب المصري قبلنا في اليوم الرابع، ودخل الركب الشامي في السادس، وبعضه في السابع، وكانوا لقوا من الحرَّامَةِ شِدَّة في الطريق حتى كادوا أن يتعَوَّقوا، ودفعوا للأعراب مالاً كثيراً نحو من مئة <sup>(١)</sup> ألف ، بعد أن انتهب من ركبهم كثير، وقتل أناس، ثم دخل ركب العراق يوم الثامن بعد ما وصل الناس إلى منى.

ولما نزلنا من الثنَّة أنحنا الركاب بالحجون وسط المقبرة للضرورة وحططنا الرحال بين القبور، إذ لم نجد مكاناً سوى ذلك، والأركاب قد ملأت خيامهم السهل والوعر، ولم يسلم إلا أماكن القبور المبنية أو المحوط بها، والله يغفر لنا ما اقتحمنا من ذلك. ثم ذكر الشيخ العياشي الذهاب إلى الحرم ومشاهدة البيت العتيق، وأنه قال في وصفه، وقد شَمَّر البرقع - برقع الكسوة - من أسافله :

فكأنه لَمَّا بدا متشمرّاً  
والطائفون به جميعاً أحدقوا

ملك همام ناهض للقاء من  
قد زاره وله إليه تشوق

فتبادر الغلمان رفع ذيوله  
حتى إذا رجعوا جميعاً أطلقوا

ثم ذكر الطواف والسعي بعد صلاة المغرب وقال : فوقفنا على الصفا ثم أتينا المروة في زحام كثير في المسعى، لأنه من أسواق البلد العظيمة، فيتضرر الساعي

---

(١) القاعدة كتابة هذه الكلمة هكذا (مائة) ولكن لاشتباها بكلمة (مائة) وحدوث اللحن في نطقها بحيث أن كثيراً من العامة ينطقها بالألف (ماية) فقد قررنا (جمع اللغة العربية) كتابتها بدون ألف (مئة).

بذلك كثيراً، ولو قيض الله الأمراء لمنع الناس من التسوق فيه أيام الموسم لكان في ذلك نفع كثير.

وما كدنا نفرغ من السعي إلا قرب العشاء، فدخلنا المسجد وصلينا العشاء، ثم رجعنا إلى منزلنا بالحجون وبتنا به حتى طلع الفجر، وجئنا لصلاة الصبح بالمسجد الحرام.

واكثرينا منزلاً بقرب باب إبراهيم أحد أبواب الحرم الشريف من عند صاحبنا الشيخ محمد القرامسي باثني عشر ريالاً، ونقلنا إليه أكثر حوائجنا وما نحتاج لحزنه حتى نرجع من عرفة.

### الأمن في مكة :

تركنا الخباء والإبل بمنزلنا بالحجون يبيت فيه بعض أصحابنا، ولقوا من أذى السراق بالليل شدة، فإنهم يهجمون على الناس هجوماً، ويعظم أذاهم في أيام الموسم لقلة الحكم بتهاون الحكام، وإرخاء العنان لهم في ذلك. وقد قيل : إنهم يأخذون منهم جعلاً على ذلك في أيام الموسم، فإذا أتى إليهم سارق أدخلوه الحبس على أعين الناس، فإذا جن الليل أخرجوه. وأما في غير الموسم، ففي تلك البلاد الحكم التام الذي لا يوجد في بلد من البلاد، ويعتلون في أيام الموسم باختلاط الناس من جميع الآفاق، وتعدد الحكام، إذ لكل ركب حاكم ويقولون: لو أطلقنا اليد في الحكومة على كل سارق ربّما وقعنا في بعض خدام أمراء الأركاب فيؤدي ذلك إلى الهرج في أيام الموسم، وتلك حجة ضعيفة.

### الحرّ في مكة :

قال : (وكانت أيام إقامتنا بمكة أيام حرّ واختناق الهواء، وكان ذلك والشمس في برج السنبلة، وأشد ما يكون الحرّ في الحجاز في السنبلة والميزان).

وذكر أنه أسرع الذهاب إلى الحرم الشريف وتحدث عن قيامه بالمناسك، ووصف كل ما شاهده أثناء ذلك.

ومما قال عن الكعبة المعظمة.

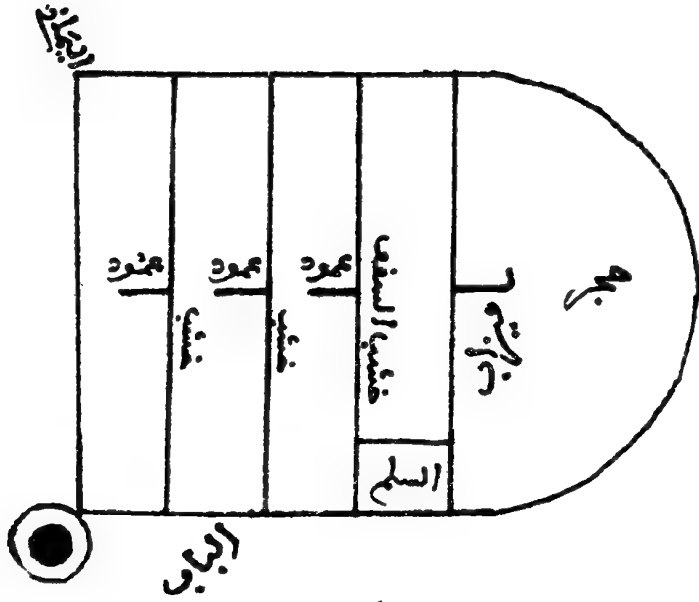
ذكر أنه بعد رمي جرة العقبة والحلق ذهب إلى المسجد الحرام فوجد البيت مفتوحاً قال : فيسر الله دخوله بلا كلفة ولا مشقة ولا سوء أدب ولم ندفع أجرة في ذلك لأحد، فوجدنا به بعض زحام فصلينا إلى جوانبه الأربع وغلبنا الحر من شدة الحر فيه لكثرة ازدحام الناس ثم هبطنا ولم تطل مدة فتحه بعد هبوطنا، وإنما يفتحونه في هذا اليوم لتعليق الكسوة الجديدة، وليس بيوم دخول عام، وإنما يدخل القيم وأمير الحاج المصري وأتباعها المعينين في ذلك، ولا ينصب سلم للدخول، وإنما يدخل من تكلف الصعود بمعين أو بخفة أعضاء، وعلى الباب أحد خدام الأمير يمنع الناس من الدخول، إلا أن الناس يكاثرونه فإن منع من جانب دخلوا من جانب آخر، وربما يتعامى عن البعض ويحصل لكثير من الناس في ذلك المكان سوء أدب من ضرب وشم بألفاظ ينزه المكان منها، فالأولى عدم الدخول إلا لمن تيسر له ذلك عفواً من غير إيلام.

وقد من الله العظيم بدخوله بعد ذلك مرات متعددة بلا كلفة ولا مشقة.

### صفة البيت العتيق من داخل :

بيت مربع، وتقص من الركن الذي عن يمين الداخل مقدار السلم نحو ثلاثة أذرع يصعد منه إلى السطح، وأرضه مفروشة بالمرمر الملون المجزء، مكسو الحيطان والسقف بكسوة على هيئة الكسوة الخارجية في الصنعة والكتابة مخالفة لها في اللون، فإن الخارجية سوداء كلها والداخلية بياض في حرة، فيه مصابيح كبيرة معلقة، بعضها من الذهب وبعضها من البلور الأبيض الصافي المكتوب بلون أزرق، وله ثلاثة أعمدة من خشب مصطفة في وسطه ما بين اليمين والشمال، وكل عمود منها قد سمرت عليه ألواح من عود من أسفل مقدار وقفة، وهذه صورته : (انظر الصفحة التالية).

والخشب المسقف به الذي عليه اللوح ذاهب من ناحية الباب إلى الجهة المقابلة له، أحدها : رأسه على حد السلم وهو أقرها لجدار البيت، وليس بينه وبينه إلا مقدار ما يصلى فيه، والثاني : بينه وبين الباب، والثالث : عند الباب، وقد أمعنت النظر فيه وإن كان ذلك سوء أدب يغفر ذلك لمن لم يكن قصده التفرج وأراد الوقوف على حقيقة الأمر، والله يغفر ويتقبل.



صورة داخل الكعبة في رحلة العياشي

### أوقات فتح البيت :

ويفتح البيت عادة سبع مرات في السنة :-

١ - يوم النحر لتعليق الكسوة الجديدة وإزالة العتيقة، وليس بيوم دخول عام، ويكون فتحها في هذا اليوم عند طلوع الشمس.

٢ - يوم عاشوراء.

٣ - يوم المولد النبوي في ربيع.

٤ - في شعبان.

٥ و٦ - في رمضان.

٧ - في ذي القعدة، ويتمادى فتحها في غير يوم النحر من حلّ النافلة إلى الزوال، ويدخلها في غيره أيضاً كل من شاء ذلك من الرجال.

وأما النساء فالعادة أن كلنبا فتحت الكعبة يوماً للرجال فتحت في غيره لدخول النساء، ولا يقرب ساحة البيت يوم دخول النساء أحد من الرجال كفعل النساء يوم دخول الرجال، ومن اضطر لطواف يوم دخول النساء لأجل عمرة، طاف من وراء الأعمدة والقباب كلها، فتلحقهم مشقة في ذلك.

### جؤ مكة :

قال: وقد أصابتني حتى في بعض تلك الأيام، فاحتجمت فعافاني الله منها. وكانت تلك الأيام التي أقمنا بها بمكة أيام حرٍّ واختناق، وأكثر مايكون الحرُّ في الحجاز في السنبلة، والميزان .

### الآثار في مكة المكرمة :

ومع أن العياشي تطفى عليه روح التصوف طغياناً يكاد يسدُّ عليه منافذ التفكير في كثير من الأحيان، إلّا أنه كثيراً ماييدي شكّه وتساؤله في صحة كثير من الآثار كالموالد والمساجد وغيرها. ومن الآثار التي زارها ووصفها :

**جبل حراء :** وقال في وصفه : وهو جبل متوحد بأعلى مكة على ثلاثة أميال منها، وعلى رأسه قبة ترى من المسجد الحرام، والغار في أعلاه من الناحية الغربية الموالية لمكة، وقد خرجت لزيارته مع جماعة من أصحابنا في إحدى ليالي ذي القعدة سَحَرًا، وصلينا الصبح بعدما جاوزنا بيوت مكة كلها ووصلنا أعلاه عند طلوع الشمس، وهو مع صعوبته قد سُويت طريقه، وأزيلت الأحجار المعترضة من غالب طريقه، وبني ما يحتاج إلى البناء فيها بحيث أن الدابة يمكنها الصعود براكبها إلى أعلاه، وفي أعلاه شبه مسجد على باب القبة، يصلي فيه الناس، والغار من أسفل القبة بين صخرات هناك، وهو صغير جداً يسع ثلاثاً أو أربعاً(?) فيما أظن، ويصلي فيه الناس للبركة، وقد جلسنا هناك هنيهة ريثما حلت النافلة فصلينا فيه ودعونا. وباب الغار منتكب إلى ناحية الشمال، وقد كنت أسمع هذا — ورأيت منصوصاً — أن الجالس في الغار يرى الكعبة، ولذلك اختار النبي صلى الله عليه وسلم التحنث فيه، لأن النظر إلى البيت عبادة،

فيجتمع له أنواع من العبادات، لا تكاد تجتمع في غيره، وهذا لا يصح إلا أن يريد المحل الذي هو فيه، فإن البيت قبل أن يكتنفه البنيان العظيم قد يظهر من خارج، وأما من الغار نفسه فلا.

غريبة: أخبرني شيخنا أبو مهدي عيسى أنه خرج ذات مرة للتحنث بهذا الغار، وكان يخرج إليه قبل ذلك بهذا القصد، وخرج معه في هذه المرة ثلاثة من أصحابه من الهند، وكان اثنان منها مقيمين معه، والثالث يتردد عليها بما يحتاجان من ماء وطعام، قال: وكان معي كتاب «بداية المجتهد» للحفيد ابن رشد، أطلع فيه أحياناً، فبينما هو ذات يوم في الغار وصاحبه في القبة، والثالث تحت صخرة هناك، إذ عرض في السماء عارض غيم وبرق، ثم أرم الرعد، وأتى بأمر هائل، قال: مارأيت مثله قط، فلم أشك أنه الموت، ولزمت مكاني، وطبت نفساً بشرف البقعة، وقلت: حبذا لقاء الله في مثل هذا المكان، وألزمت نفسي حضور القلب، منتظراً حلول القضاء، حتى انكشف ذلك، وخرجت من الغار فإذا صاحباي اللذان في القبة قد ماتا، أحدهما جالس على هيئته، لم تتغير منه شعرة، والآخر ساقط قد سال الدم من بعض منافذه، فلم أرَ منظرًا أهول ولا أفزع من ذلك، فالتصت الثالث من أصحابي فوجدته تحت صخرة وقد سلمه الله، فبعثته إلى مكة لنعلم أصحابنا، فبقيت هنالك وحدي منفرداً في الليل، فلم أرَ أمراً أفزع ولا أوحش من ذلك، وكان أعظم وأشق علي من الحال التي كنت عليها في الغار، فاجاء الناس مع صاحبي حتى كدت أهلك غمًا، فاحتملنا صاحبينا، وذهبنا.

فن ذلك الوقت مارجعت للتحنث فيه إلا أن أذهب زائرًا ثم أرجع (١).

غار جبل ثور: قال عنه: (خرجت لزيارته يوم الأربعاء الثامن من شوال، مع جماعة من أصحابنا المجاورين).

وجبل ثور على ثلاثة أميال من مكة، إذا مرَّ السالك إليه فيما بين الخندمة وأبي قبيس، وهو وراءهما، وأما من مرَّ بأسفل مكة حيث يدور إليه فأضعاف

ذلك، وعليها يسلك من مَرَّ راكباً مع بعدها، لتوعر القرية. وخرجنا من المسجد بعد صلاة الصبح وسلكنا الطريق القريبة فإِصَلنا إلى سفحه حتى ارتفع النهار وتمع، فأخذنا في الصعود إليه.

وهو جبل منقطع عن الجبال التي حوله، ذاهب في الهواء، مشرف على كل ما حوله من الجبال، مكسوة جلاله ومهابته، صعب المرتقى غايةً، ما رأيت مثله فيما سلكته من الجبال على كثرتها، وفيه أماكن ما كُنَّا نمرُّ بها إلا حَبِئاً على اليدين والرجلين جميعاً، وارتفاعه في السماء نحواً من ثلاثة أميال أُخَر.

والغار في أعلاه من الناحية الموالية لمكة. فإِصَلنا أعلاه إلا بعد جهد جهيد، واستراحة مراراً متعددة، وكان ذلك في وقت الحر وقد حللنا معنا ماء، وتركنا بعضه تحت شجرة بأصل الجبل، اتقاء لمعرة العطش بعد الرجوع. فلما وصلنا إلى محل الغار وجدناه من عجائب آثار قدرة الله، وله بابان، الأصلي الذي دخل منه النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه من ناحية المغرب وهو صغير جداً ملاصق بأرض الغار، لقد حُيِّلَ إلَيَّ عندما رأيته أن أحداً لا يمكنه الدخول منه لضيقه، وهو شق صغير بين صخرتين عرضه ثلاثة أشبار، وارتفاعه أزيد من شبر، فأيست من الدخول منه، حتى رأيت من هو أعظم مني جثة قد دخل منه، فتحاتمت ودخلت من ذلك الشق مع مشقة وترتيب أعضاء من تقديم إحدى اليدين إلى المنكب، واتباع الرأس لها، وإرسال اليد الأخرى مع الجنب.

ولقد طال تعجبي من معرفة الناس بكونه غاراً متسعاً من داخل، فهو إن لم يكن معروفاً عندهم قبل ذلك معهوداً فالأقرب أنه بالوحي، أو إلهام من الله لرسوله، لأن العادة تكاد تقطع بأن مثل ذلك لا يكون كهفاً متسعاً من داخل، إذ هو صخرة واحدة، منقطعة عن غيرها، منكفية على أخرى، منقورة في وسطها قدر الإنسان ارتفاعاً، وسعة نحو العشرة أذرع، ولولا عظم الصخرة وتواتر الخبر بأنه كذلك من قديم الزمان لتوهم أنها صخرة نقرت في وسطها، ثم قلبت على أخرى بصنع آدمي.

وأما الباب الآخر فإنه إلى ناحية المشرق، وهو واسع يدخل منه الإنسان ويخرج كما شاء.

وزعموا أنه مفتوح بصنع الآدميين، وأن سبب فتحه أن شخصاً تكلف الدخول فلم يقدر على الخروج وكرهوا تغيير الباب الأصلي بتوسعة، ففتحوا هذا الباب من الناحية الأخرى لخروج ذلك الشخص ويدخل من لم يقدر على الدخول من الباب الأصلي.

وبإزاء هذا الباب المفتوح مصطبة محوط عليها بأحجار شبه مسجد، مفروش برمل، والناس يصلون فيه ويصلون أيضاً في داخل الغار.

وفوق الغار في قبة الجبل غار آخر كبير واسع، تحت صخرة عظيمة مفتوح من جوانبه محوط عليه بأحجار شبه مسجد آخر، يجلس الناس فيه، ولا أدري ما أصله، وفيه منظر رائع يشرف منه الإنسان على بلاد كثيرة، ولم أر في تلك الناحية جبلاً أعلى منه إلا جبل أكرى<sup>(١)</sup> الذي يصعد منه إلى الطائف.

وقد ذكر بعض من ألف في أخبار مكة وجبالها : أن من زار هذا الغار وكان به حزن آله وسأل الله إذهابه، يذهبه عنه ولا يحزن بعد ذلك، وكأنه اقتبس ذلك من قوله تعالى : (إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا) ولم أطلع على هذا إلا بعد رجوعنا منه، ولم يمكنني الرجوع إليه مرة أخرى بهذه النية.

وبقينا هنالك في أعلى الجبل مستظلين بظل الغار الذي ذكرنا هناك حتى زالت الشمس بساعة، وصلينا هنالك الظهر وانحدرنا، وقاسينا في الهبوط مثل الطلوع أو أشد، ومررنا على الماء الذي خلفناه أسفل فشربنا، ولولا هو لأثر فينا العطش غايةً، وما وصلنا إلى مكة إلا مع أذان المغرب، وقد كَلَّتْ مِنَّا الْقُوَى، وضعفت الأبدان، إلا أننا مع ذلك كنا فرحين بما آتانا الله من فضله<sup>(٢)</sup>.

دار المولد : قال : (ولم نزر في هذه المدة إلا الدار التي فيها ولد النبي صلى الله عليه وسلم وقد اتخذت الآن مسجداً ومزاراً عظيماً يجتمع إليه الوفود من كل جانب أيام المولد النبوي)<sup>(٣)</sup>

(١) الصواب : (كرا).

(٢) «العياشي» ٢ - ١٠٢.

(٣) ١ - ٢٢٥.

وقال مانصه : قلت : وقد علم من كتب السير ما وقع من الاختلاف في مولده صلى الله عليه وسلم هل هو بمكة أو بالأبواء، وعلى أنه بمكة فليل بالشعب، وقيل بالمحصب إلى غير ذلك من الأقوال.

ولا أدري من أين أخذ الناس تعيين هذا المحل بالخصوص، اللهم إلا أن يشبت أن تلك دار والده أو جده صلى الله عليه وسلم فيترجح القول بأنه في مكة في قضية عادية، وهي أن ولادة الإنسان في الغالب في منزل والده. وإن أريد بالشعب شعب أبي طالب الذي انحاز إليه بنو هاشم وبنو المطلب في قضية الصحيفة، فلا يبعد ذلك لأن هذه الدار قريبة من الشعب من أسفله.

والعجيب أنهم عينوا محلاً من الدار مقدار مضجع، وقالوا له : موضع ولادته صلى الله عليه وسلم! ويبعد عندي كل البعد تعيين ذلك من طريق صحيح أضعيف، لما تقدم من الخلاف في كونه في مكة أو غيرها، وعلى القول بأنه فيها ففي أي شعابها؟ وعلى القول بتعيين هذا الشعب ففي أي الدور؟ وعلى القول بتعيين الدار يبعد كل البعد تعيين الموضع من الدار، بعد مرور الأزمان والأعصار، وانقطاع الآثار.

والولادة وقعت في زمن الجاهلية، وليس هناك من يعتني بحفظ الأمكنة، سيما مع عدم تعلق غرض لهم بذلك، وبعد مجيء الإسلام فقد علم من حال الصحابة وتابعهم ضعف اعتنائهم بالتقييد بالأماكن التي لم يتعلق بها عمل شرعي، لصرفهم اعتناءهم — رضي الله عنهم — لما هو أهم، من حفظ الشريعة، والذب عنها باللسان واللسان، وكان ذلك هو السبب في خفاء كثير من الآثار الواقعة في الإسلام، من مساجده عليه السلام، ومواضع غزواته، ومدفن كثير من أصحابه، مع وقوع ذلك في المشاهد الجليلة، فما بالك بما وقع في الجاهلية، لاسيما ما لا يكاد يحضره أحد إلا من وقع له، كمولد علي ومولد عمر، ومولد فاطمة — رضي الله عنهم جميعهم —، فهذه أماكن مشهورة عند أهل مكة. فيقولون : هذا مولد فلان، هذا مولد فلان، وفي ذلك من البعد أبعد من تعيين مولده صلى الله عليه وسلم، لوقوع كثير من الآيات ليلة مولده صلى الله عليه وسلم فقد يتنبه بعض الناس لذلك بسبب ما ظهر من الآيات، وإن كانوا أهل جاهلية. وأما

مولد غيره فمن ولد في ذلك العصر فتكاد العادة أن تقطع بعدم معرفته، الا أن يرد خبر عن صاحب الواقعة باتبه أو أحد من أهل بيته.

**مولد فاطمة:** قال عنه: (ومما زرناه أيضاً مولد فاطمة رضي الله عنها، في دار خديجة رضي الله عنها والتعيين أميل إلى صحة هذا المكان أكثر من غيره). وذكر أنه زار مولد علي رضي الله عنه، ودار أبي بكر الصديق وقال: (وغالب هذه الأماكن اتخذت مساجد ومزارات)<sup>(١)</sup>.

**المودع:** وذكر من المزارات المشهورة (موضع بسوق مكة يسمى المودع)<sup>(٢)</sup>، ويقال: إن فيه ودع النبي صلى الله عليه وسلم أهل مكة لما أراد الخروج إلى المدينة في حجة الوداع، وهو مكان مشرف تظهر منه بعض أستار الكعبة، وليس في أسواق مكة محل تظهر منه الكعبة إلا هذا، فيقف الناس فيه للدعاء<sup>(٣)</sup>.

**رباط عبد القادر الجيلاني:** وقال: (وقريب من هذا المكان — المودع — رباط ينسب للشيخ عبد القادر الجيلاني يسكنه الفقراء، وله أوقاف، وبه قبور تزار، لا أتحقق أصحابها)<sup>(٤)</sup>.

**مسجد الجنّ —** قال عنه: (هو بأعلى مكة بجانب الطريق بين الدور، وفيه شجرة، يأوي إليه الفقراء، ويستظلون فيه، وهو المكان الذي جاء فيه الجنّ إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأسلموا)<sup>(٥)</sup>.

**مقابر مكة:** وتحدث عن مقابر مكة، ومما قال: وأما المقابر فالحجون كله من المزارات وأشهر المزارات فيه:

---

(١): ١ - ٢٢٦.

(٢): لعله يقصد المدعى.

(٣): ج ٢ ص ٢٧٩.

(٤): ٢ - ٢٧٩.

(٥): ٢ - ٢٧٩.

- ١ - قبة أم المؤمنين السيدة خديجة رضي الله عنها.
- ٢ - قبة فيها قبر الفضيل بن عياض وغيره من العلماء.
- ٣ - قرأت على حجر فيه : (هذا قبر الإمام أبي القاسم القشيري) وهذا غريب أن يكون نقل بعد موته إلى هناك، فلم نَر أحدًا من المؤرخين ذكر أنه مات بمكة.

وعلق على هذا صاحب الرحلة الناصرية : (وقد رأيت في «طبقات» الإمام السبكي التعريف بمولد أبي القاسم القشيري، وذكر أنه توفي بمكة المشرفة فعلمت قبره لاقبر أبيه(؟)(١) .

- ٤ - وبأسفل الحجون بجانب الطريق قباب كثيرة غالبا للشرفاء أمراء مكة، ومنها قبة سامية يقال لها قبة أبي طالب، وعوام الغرباء يظنونها أبا طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم، وبعضهم يقولون : أبو طالب المكي. وسألت أهل العلم بمكة فأخبروني إنما هو أمير من أمراء مكة المتأخرين من أشرفها من آل بني نُمَي اسمه أبو طالب. قالوا : وكان في حياته شجاعاً مقداماً فاتكأ، دَوَّخ بلاد الحجاز، وقهر عربانها غاية القهر، وأهل نجد وتهامة إلى الآن يؤرخون بموته فيقولون : كان هذا في زمن أبي طالب. وكان سقاكاً للدماء، ومع ذلك كان حسن السيرة، ولم يكن أحد يأتيه بالولاية(؟) لما هو عليه من الفتك والبطش. إلا أن بعض أهل الكشف كان يقول : هو مظهر من مظاهر أسمائه تعالى القهرية(؟) وأقيم في مقام الجلال(؟)، فلما توفي ظهرت له كرامات كثيرة، وصار قبره من أعظم المزارات).

ومن الخرافات التي أوردها عن صاحب هذا القبر : (فما ظهر له أنهم قالوا: جلس جماعة من القراء حول قبره يقرأون القرآن قرب موته كما هي عادتهم، وبين أيديهم شمعة تضيء بالليل، ف وقعت إلى الأرض فانطفت، فتحيروا ولم يجدوا من يوقدها لهم، فانشق القبر عياناً، وخرج منه فأوقد لهم الشمعة ورجع. أخبرني بذلك ثقة، وزعم أنه مستفيض عندهم. ومنها أن بدوياً خرج من مكة بقفص عنكب، فلما وصل قبره تذكر حاجته بمكة فوضع القفص ورجع، فجاء سارق

(١) : مابين المربعين من «الناصرية» ١ - ٢٢٥.

ليأخذه، فيبست يده، والتصقت بالقفص، وبقي واقفاً عنده حائراً إلى أن جاء البدوي فرأى ذلك، فلما علم الأمر قال :- على حسب نيته :- جد يا أبا طالب، جد يا أبا طالب. أطلقه الآن، فقد قضيت حاجتي، فانطلقت يد السارق وذهب<sup>(١)</sup> .

**قبر عمر العربي :** قال : (ومن المزارات قبر القطب الولي الشهير الذكر عند أهل مكة وأعرابها سيدي عمر العربي، وغالب السائلين بمكة والمستصرخين إنما يهتفون باسمه، وأهل البادية تسمع الرجال والنساء منهم يقولون : شيء لله يا عربي. وهو عندهم عظيم القدر، شهير الذكر، وحق له ذلك فإنه كان من أئمة الطريق)<sup>(٢)</sup> انتهى كلامه.

**جبل أبي قبيس :** وقال : ومنها — الأمكنة التي تزار — جبل أبي قبيس يشرف منه على مكة كلها، والمسجد والبيت، وفيه مغارة يقال إن فيها قبر آدم، والحجاج يشترون من مكة رؤوس الغنم المشوية، ويصعدون إليه، ويأكلونها فيه، ويزعمون أن من فعل ذلك أمِنَ من وجع الأسنان والرأس.

**مولد عمر :** وقال : (ومنها قبة على الجبل الذي على يسار الذهاب إلى الشبيكة، ويقال إن فيها مولد عمر رضى الله عنه).

**دار الأرقم :** (ومن المزارات المشهورة بمكة دار الأرقم التي اختفى فيها النبي صلى الله عليه وسلم، وفيها كان إسلام عمر، وخبرها مشهور في السير، وهي الآن مسجد قرب الصفا).

**حجر المرفق :** قال : (ومنها — الآثار التي تزار — حجر في بعض أزقة مكة مبني في جداره فيه أثر مرفق يقال إنه مرفق النبي صلى الله عليه وسلم).

---

(١) ذكرت هذه الخرافات لكي يدرك القارئ مدى ما يبلغه تفكير أهل ذلك العصر، ومقدار سيطرة ذوي التخريف والجهل على أهله — ولا حول ولا قوة إلا بالله —.

(٢) ولم يؤث المسلمون إلا من باب الاعتقاد بهؤلاء الذين ينسبون إلى الصلاح، بحيث تجاوزوا الحد في تعظيمهم إلى درجة الاستصراح بهم ودعائهم، وهذا هو الضلال الذي لا ضلال بعده.

(وبقرب دار أبي بكر رضي الله عنه حجر في جدار فيه كأثر المرفق، يقال : إن مرفق النبي صلى الله عليه وسلم غاصت فيه لما استند إليه، والناس يتمسحون به ويتبركون، وقد تمسحنا به وتبركنا بالنية المتقدمة) انتهى.

وهذا التمسح لا يجوز شرعاً، لو صحَّ ما قيل عن هذا الحجر، فكيف وما ذكر عنه خرافة من الخرافات. وعَدَّ من الأماكن التي ينبغي أن تزار، — عدا ماتقدم ذكره — مَحَلًّا في الجبل المشرف على المحَصَّب، على يمين الذهاب من مكة إلى منى، يزعم أهل مكة أن فيه قبر عبدالله بن عمر رضي الله عنها.



الآثار في منى



## الآثار في منى

ونواصل السير مع الرحالة العياشي المغربي، بتلخيص ما يتعلق بالحجاز من رحلته «ماء الموائد»، فقد وصف الآثار التي شاهدها في مكة.. وذكر الأمكنة التي ينبغي أن تزار.

لقد أدى مناسك الحج سنة ١٠٧٣ وسنكتفي بعرض لمحات من مشاهداته بإيجاز، إذ الكلام عن الحج ومناسكه ومشاعره، وما يفعله المرء من الاستعداد لأدائه من الأمور التي تتكرر في كل زمان عند جميع من كتبوا عن ذلك.

### المبيت بمنى قبل الوقوف :

قال : (وكان نزولنا بمنى فوق مسجد الخيف بسفح ثبير... وبتنا تلك الليلة بمنى ولم يبت بها إلا المغاربة وقليل من غيرهم، وكثير من الناس ذهبوا إلى عرفات، وذلك دأبهم منذ أزمان، فقد قال الخطاب : وهذه السنة — أعني المبيت بمنى هذه الليلة — قد أميتت منذ أزمان، وقد ذكر ذلك كثير من المرتحلين كابن رشيد والعبدري ومن بعدهما، وذكروا أن الخوف يمنع من المبيت هناك بعد ذهاب الأركاب.

### وصف الموقف النبوي بعرفة :

قال العياشي : (إلى أن وصلنا إلى موقف النبي صلى الله عليه وسلم وما عرفناه قبل هذه السنة (١٠٧٣) هـ وبعث معنا شيخنا أبو مهدي رجلاً دُلنا عليه، وهو تحت موقف الإمام اليوم في أصل الجبل على صخور مفترشة، وبني على تلك الصخور محوط شبه مسجد<sup>(١)</sup> .

(١) «العياشية» ١ / ١٩٣.

ثم وصف الانصراف من عرفة، والنزول بمزدلفة، وقال : (وعدلنا يميننا واستندنا للجبل ونزلنا - في المزدلفة - فلما غاب القمر أخذ السراق يرموننا بالأحجار من الجبل لقربنا منهم، وكان ظنهم يخرجوننا من الرحال بذلك فيصادفوا فرصة، فكفانا الله شرهم) (١) .

### وادي النَّار (محس) :

وقال : (وسرنا حتى جئنا وادي النار، وأسرعنا به، وهو أول ما تحاذي البركة الخربة التي على يسارك إن مررت بطريق الأركاب، وأنت ذاهبٌ إلى منى حتى تأخذ في الطلوع إلى منى، وترتفع بك الأرض، وهذا عَرَفَةُ أعلم عصره بالمناسك خليل المكي حسبنا نقله عنه البلوي في رحلته، إذا سأله عن حدّه) (٢) .

ونقل في موضع آخر عن رحلة ابن رشيد (٣) ما نصّه : قال أبو عمرو بن الصَّلَاح : وأول مُحَسَّر من القرن المشرف من الجبل، الذي على يسار الذهاب إلى منى، ثم يخرج منه سائراً إلى منى سالكاً للطريق الوسطى التي تخرج إلى الكعبة (؟) وليس من مُزْدَلِفَةٍ ولا من منى، وهو مسيل ما بينهما) (٤) انتهى.

في منى أيام التشريق : قال (ثم جئنا إلى منازلنا بمنى، وكان نزولنا وراء المسجد قرب الغار الذي نزلت به سورة المرسلات على النبي صلى الله عليه وسلم، وخبره مذكور في الصحيح، وقد بني على بابه محوط شبه مسجد صغير... وهو في أصل جبل ثبير، بينه وبين مسجد الخيف رمية بحجر.

وكان نزولنا في هذا المحل إثارةً لقرب هذا المكان وقرب المسجد، مع كونه أنظف وأوسع، وأقرب للجبل الذي يشرف منه على منى كلها، وهو أستر وأمكن للإنسان في حاجته، والناس يتحامون القرب من الجبل تقية من أذى السراق، يستجير بعضهم ببعض، ويفرون إلى الدخول في غمار الناس، لا يبالون بما نالهم

(١) : «العياشية» ١ / ١٦٤.

(٢) : «العياشية» ١ / ١٦٥.

(٣) : نشرت «العرب» كل ما يتعلق منها بالحجاز.

(٤) : «الرحلة العياشية» ٢ / ٢٥٥.

في ذلك من وطء الأقدام، وتقطيع الحبال، وتعفن الأرجاء، واستنشاق الروائح الكريهة، ونحن استسهلنا أمر السرقة في جنب هذه المضار، وكان منزلنا أنظف المنازل وأحسنها وأبعدها عن الأذى وأبهجها<sup>(١)</sup> .

### وصف سوق منى :

(ثم في الغد عمرت الأسواق، وكثر الإنفاق، وخرجت البضائع ذوات الأثمان وصنوف التجارات، وتزاحم الناس على الشراء رجاء لبركة ذلك المكان، وأكثر التجار يقولون : إن من اشترى شيئاً من منى وجعله في تجارته وجد بركته، وظهرت له ثمرته، ولا يبعد ذلك فإنه موسم شريف، ومحل بركة، يأتيه الناس من كل فجٍّ عميق، ليشهدوا منافع لهم)<sup>(٢)</sup> .

**ذبائح منى :** (وقد ذبح في منى ذلك اليوم والذي بعده من البقر والغنم ما أحسب الغني والفقر، وكفى الوارد والمستوطن، وامتألت الطرقات وأفنية المنازل باللحم، وأما الجلد والساقط والأكارع فلا ترى أحداً يأخذها، بل بقي كثير من الغنم غير مسلوخ إلى أن ارتحل الناس من هناك، لم يمسه الناس، فن الفقراء من يأخذ نحواً من عشرة من الغنم، فيبيعون لحومها بأرخص ثمن، ويبيسون ما قدروا عليه، ضيافة الله الذي لا يقدر أحد على كفاية خلقه سواه، فقد ورد من آفاق الأرض أصناف من الخلق لاتحصى، أغنياء وفقراء، فأكل الكلُّ من ضيافة مالِكهم، وتزودوا ما قدروا، وفضل ما أعجز الطير والوحش والهوام، فأقسم لقد مررت بهذا المكان بعد سنة أو قريباً من ذلك في قفولي من الطائف فوجدت به عدة كثيرة من الغنم قد يبست جلودها على لحومها وعظامها لم تُمسَّ إلى أن صارت مثل الخشب من يبسها)<sup>(٣)</sup> .

**المنازل في منى :** (وبعد الفراغ من الرمي جئت لمنزل شيخنا تاج الدين فوجدت عندهم شيخنا سيدي عيسى الثعالبي... ولأهل مكة — خصوصاً الأكابر من أهل الوظائف كالعلماء والأمراء والتجار وأكابر البلد — منازل بمنى

(١) : «العياشية» ١ / ١٩٨.

(٢) : «العياشية» ١ / ١٩٩.

(٣) : «العياشية» ١ / ١٩٨.

ينزلونها أيام الموسم، متقنة البناء، غالبها مشرف على السوق فيها غرف عالية، ومطابخ ومرافق، وربما نزلوها في بعض الأحيان في فصل الربيع فصل التفرج ومنزل شيخنا تاج الدين المالكي هذا من أحسن المنازل، له مصطبة مونة بجانب الطريق، لها شبابيك<sup>(١)</sup>.

### الليلة الثانية في منى :

(ولما كانت الليلة الثانية من ليالي منى بالغ أهل مصر والشام في إيقاد المصابيح، واتخاذ المصانع منها<sup>(٢)</sup>، وصور الأشجار والأخبية، وأكثروا الرمي بالمدافع والبنادق والمحاق المرتفعة في الجو، وفعل مثل ذلك السلطان زيد، وفي ذلك نزهة للأبصار، وتسلية للأفكار، ومجال للاتعاظ والإذكار، والقبول والإنكار، منزل جمع أصناف العباد، وحشر إليه عمار البلاد، فهو أجل الأندية، ومبانيه أحسن الأبنية، تشرق بالنهار فساطيطه المونة، وبالليل مصابيح المشرق).

ثم وصف ما شاهده من الآثار في منى، ومنها :

**مسجد العقبة :** قال : (وهذا المسجد هو المكان الذي بايع الأنصار صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة، فهو من المساجد المنسوبة للنبي صلى الله عليه وسلم... وهو في الشعب تحت حجرة العقبة بيسير على يسارك وأنت ذاهب من مكة إلى منى)<sup>(٣)</sup>.

**مسجد الخيف :** (وهذا المسجد يسمى مسجد علي، قيل إن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أول من بناه، وهو موضع منزل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في حجة الوداع).

وطول هذا المسجد من المحراب إلى الباب الذي يقابله ٤٠٠ قدم وعرضه ٣٤٠ وبوسط المسجد قبة مثمثة كل ثمن منها ٢٤ ذراعاً من خارجه.<sup>(٤)</sup>

(١) : «العياشية» ١ / ٢٠١.

(٢) : «العياشية» ١ / ١٩٩.

(٣) : «العياشية» ١ / ١٩٨.

(٤) : «العياشية» ١ / ٢٠٤.

ورأيت في بعض التواريخ أن في محل هذه القبة كان فسطاطه عليه السلام وصحن هذا المسجد كبير، إذ المسقف منه مقدمه نحو أربعة صفوف، ومن سائر الجوانب غير مسقف).

**مسجد النحر بمنى:** (مسجد النحر وهو موضع منحدر النبي صلى الله عليه وسلم، وهو في وسط الدور مقابلة الجمرة الوسطى، وما عرفته إلا في هذه السنة (١٠٧٣هـ) دلني عليه شيخنا أبو مهدي، وهو مسجد واسع حسن البناء إلا أنه انهدم أكثره، وتلوث بالأفذار والكناسات)<sup>(١)</sup>.

**مسجد الكبش:** (وهو في شعب مقابل الجمرة الوسطى على يمين الذهاب إلى العقبة، وهو بين صخور كبار، ليس حوله ديار، ويقال إنه الموضع الذي أخذ فيه إبراهيم عليه السلام الكبش الذي فدى به الذبيح عليه السلام، وهناك ذبحه)<sup>(٢)</sup>.

**انتهاك المساجد والمزارات خارج مكة:** وقال (وغالب المساجد والمزارات التي هي خارج مكة تنتهك في أيام الموسم، وينزلها الناس بدوابهم، ويطبخون فيها من غير نكير، وهي من البلايا العظيمة)<sup>(٣)</sup>.

**التعجل من منى:** (وفي اليوم الثالث تعجل الناس كلهم وتلك عادتهم ولم يبق إلا ركب أهل العراق، وكلمنا أصحابنا المغاربة فأبوا إلا الاستعجال لشراء القماش بمكة ظناً منهم أن بتأخير يوم يفوت غرضهم، ولم يشعروا أن ما فاتهم من ثواب هذه الليلة وإحياء هذه السنة أعظم مما يدركون من الغرض العاجل مع أنه لا يفوتهم ولو تأخروا)<sup>(٤)</sup>.

— ولما زالت الشمس من اليوم الرابع ارتحلنا من منى ورمينا الجمار بلا زحمة إذ لم يبق بمنى إلا نحن وركب أهل العراق.

(١) : «العياشية» ٢ / ٢٨٣.

(٢) : «العياشية» ٢ / ٢٨٤.

(٣) : «العياشية» ٢ / ٢٨٣.

(٤) : «العياشية» ١ / ٢٠٤.

ثم سرنا حتى نزلنا المحصب، ولم يحصب أحد سوانا، بل كثير من الناس لا يعرفونه، وتعجبوا من نزولنا هناك، وصلينا بالمحصب الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وبعده أخذنا في الرحيل فأصابنا مطر وابل، ولم يمكننا المرور وسط مكة للزحمة والظلمة فعدلنا ذات اليمين إلى كداء، ومررنا وراء الجبل حتى نزلنا أسفل ذي طوى بالمحل المسمى بالشبيكة، وهناك ينزل الركب المغربي، وبتنا هناك، ثم تركنا هناك خباءنا وإبلنا وبعض أصحابنا ودخلنا إلى مكة، ونزلنا بالمكان الذي أكثريناه قرب باب إبراهيم<sup>(١)</sup>.

**وصف منى قبل نزول الحجاج فيه:** وتأملت بسيط منى وشعابه، وتبينت سعتها وامتدادها<sup>(٢)</sup>، وكانت في أيام الموسم ربما يخيل إلى الناظر ضيقها لكثرة الخلق، ومن رأى منى وما حولها من الأماكن في غير أيام الموسم علم حسن تشبيه من قال: من أراد أن ينظر إلى الدنيا بعد انقراض أهلها فلينظر إلى منزل الراكب بعد ارتحاله. ومنى في أيام الموسم هي الدنيا بأسرها، قصور عالية،

وأسواق حافلة، وجنود مجتدة، وملابس فاخرة، وأطعمة شهية، ومراكب هنية، وبضائع غير معدودة، ومتاجر ثمينة، إلى أنواع العبادات من تكبير وتهليل، وصلاة وقراءة ونحو ذلك، وإطعام طعام، ورمي حجار، وما الدنيا محمودها ومذمومها إلا ما ذكرنا.

ولا تمر على ذلك كله ثلاثة أيام حتى لا تُحس منهم من أحدٍ ولا تسمع لهم ركزاً، فلا ترى في منازلهم إلا عظاماً نخرة، وخرقاً بالية، وفضلات منتنة، وغشاء أحوى، وقتاماً أغبر، تسفيهه الريح وتذروه، وهذا هو الحقيقي<sup>(٣)</sup> للدنيا، فليعتبر أولو الأبصار، من سكان البادية والأمصا<sup>(٣)</sup>.

(١) : «العياشية» ٢٠٥/١.

(٢) : في ٢٤ ذي القعدة سنة ١٠٧٣.

(٣) : «العياشية» ١٢٥/٢.

**بعض من اجتمع به من العلماء في مكة**



## بعض من اجتمع به من العلماء بمكة

واجتمع في مكة بعلمائها وغيرهم من المجاورين والوافدين، ومنهم :

- (١) — العلامة أبو مهدي عيسى بن محمد الثعالبي الجعفري المغربي المجاور بحرم الله وحرم رسوله<sup>(١)</sup> .
- وذكر أنه من وطن الثعالبية قومه، وهي من عمالة الجزائر، وعشيرته ينتسبون إلى الإمام جعفر بن أبي طالب<sup>(٢)</sup> .
- وزاره في داره بباب الحزورة، وتلقى عليه الذكر وألبسه الخرق الثمانية وأخذ عنه طريقة النقشبندية<sup>(٣)</sup> .
- واجتمع به في المدينة وسمع عليه كثيراً من الكتب<sup>(٤)</sup> .
- ذكر غرق كتبه في سيل الحرم سنة ١٠٧٣هـ<sup>(٥)</sup> .
- تحدث عنه وأطال الثناء<sup>(٦)</sup> .

(٢) تاج الدين المالكي ويعبر عنه بـ(شيخنا).

اجتمع به في منى وتحدث عن منزله، واجتمع بشيخه الثعالبي عنده<sup>(٧)</sup> .

(٣) الشيخ سليمان بن الشيخ عبدالعزيز الحبشي(?) .

قال : (ولقيت بالقبة التي في وسط مسجد الخيف — الشيخ سليمان ابن الشيخ عبدالعزيز الحبشي من مدينة الأحساء بالموصل وتكلمنا معه، فوجدته له

---

(١) : ١ - ١٩٢ .

(٢) : ٢ - ١٩٦ .

(٣) : ١ - ٢٠٧ .

(٤) : ١ - ٣١٣ .

(٥) : ٢ - ١٩٧ .

(٦) : ٢ - ١٢٦ إلى ٢١٢ و ٢٨٦ .

(٧) : ١ - ١٩٩ .

مشاركة حسنة في كثير من العلوم، وحصلت بيني وبينه إلفة، ولم يزل يتعاهدني أيام الإقامة بمكة، وأهدى لي من ثمار بلدهم، وهو من أجود التمر، وقد عقدت معه عقد أخوة في الله، وكتب لي بذلك خطه (١).

#### (٤) جمال الدين الهندي النقشبندي :

قال : (اجتمعت بالشيخ جمال الدين الهندي بالمدرسة الداوودية، جمعني به شيخنا وصاحبنا الشيخ علي حاج اليمنى بعدما سألته عن هو اليوم في الحرمين أفضل هذه الطائفة النقشبندية، فدلني على الشيخ جمال الدين وأخذت عنه طريق السادات النقشبندية ببيته، وذكر أنه لقيه أيضاً في المدينة، وأخذ عنه (٢).

#### (٥) زين العابدين الطبري الحسيني عالم مكة وابن عالمها :

ذهبت إلى شيخنا زين العابدين الطبري فوجدته بداره وسلمت عليه، ورحب بي كثيراً، وعزيت في أخيه شيخنا أبي الحسن وواعدني يوم السبت لتلقين الذكر ولباس الخرقه، واعتذر بكثرة الأشغال بولايته الفتوى مضافة إلى إمامة المقام مع شغل الناس بأيام الموسم — ثم ذكر اجتماعه به مرة أخرى وأطال، ووصفه بأنه مفتي الشافعية وإمام المقام (٣).

#### (٦) حسن بن علي بن يحيى بن عمر العجيمي المكي الحنفي :

نقل عنه أشياء كثيرة صوفية (٤).

#### (٧) أحمد بن القاضي تاج الدين الأنصاري المالكي، وقاضي المالكية بمكة

اجتمع به في المدينة ثم اجتمع به في مكة، وأورد كثيراً من قصائد والده الشيخ تاج الدين المتوفى سنة ١٠٧٠ تقريباً (٥).

(١) : ١ - ٢٠٤.

(٢) : ج ١ ص ٢٠٥ و ٤٥٣.

(٣) : ١ - ٢٠٦ و ١٢٥.

(٤) : ٢ - ٢١٣ إلى ٢٣٠.

(٥) : ٢ - ٢٣٠ إلى ٢٤٠.

**أهل مكة وبعض عاداتهم**



وتحدث كثيراً عن أهل مكة، وذكر بعض عاداتهم، ووصف ما شاهده منها،  
ومن ذلك قوله :

فى وصف أهل مكة فى شهر رمضان، : (واجتهد أهل الثروة من أهل مكة، فكان لكل واحد منهم مصباح كبير بين يديه ، وخصفة يجلس فيها كل ليلة بالمسجد، ويأتى بنفر يقرأون عنده فى القرآن أجزاء على المناوبة، إلى أن تذهب حصّة من الليل، فإن كان قارئاً قرأ معهم، وإلاّ استمع، ويسقيهم من الأشربة اللذيذة على قدر وسعهم، ويطيبهم، ويستعدون لذلك، فترى صحن المسجد على سعته يزهر مصابيح، وعلى كل مصباح نفر يقرأون، فإذا كان ليلة الختم احتفل لها أكثر، حتى تكون ليلة العيد، فيعطي كل واحد منهم لمن يقرأ عنده كسوة ودراهم، على قدر ماله ومروءته، فينتفع بذلك غايةً ضعفة المغاربة المجاورين ممن كان يستظهر القرآن، سيما من كان حسن الصوت منهم. ومن كانت فيه صرامة يقرأ فى عدة أماكن، ويأخذ من كل مكان مأشورٍ عليه)<sup>(١)</sup> .

ووصفهم فى أداء صلاة العيد، فقال : (ولما كان يوم الفطر بكر الناس لأخذ مواضعهم للصلاة فى المسجد... فلم يأت الإمام حتى ارتفعت الشمس وبدأ الحر، وخطب خطبة بليغة وأطالها.

وقدم مع الإمام جماعة من المؤذنين وأكابر الناس معهم ألوية، وعلى المنبر ألوية أخرى، وفرش المنبر كله بالديباج، وجلس المؤذنون تحته إلى باب المنبر، فلما وصل إلى ذكر السلطان والدعاء له قام إليه أحد أصحاب الأمير وخلع عليه الخلعة، وهو يخطب، وما هو إلا أن يخلع عليه فيذهب الذين معه، وتتابع الناس أفواجاً، حتى لا يكاد يبقى مع الخطيب إلا قليل من الناس، ولا ينتظرون فراغ الخطبة ولا دعاء الإمام، وكأنّ قصدهم إنما هو مشاهدة الخلع على الخطيب، وتلك عادة مذمومة.

ولما انفضّ الجمع ذهب كل أحد إلى منزله، ومن كان له صديق حميم أو

---

(١) : ٢ - ٩٩.

قريب أو وليّ نعمة ذهب للسلام عليه في مجلسه ولو لقيه في المسجد أو جلس معه لا يكتفي بذلك حتى يأتيه إلى منزله<sup>(١)</sup> .

ووصف الحرم في شهر رمضان، قال : (وبلغ في تنظيف مقامات الأئمة الأربعة، في كل مقام إمام يصلي بصلاته جماعة كثيرة من أهل مذهبه، ولهم مسمع. وأعظمهم أئمة، وأكثرهم جعجة وأصواتاً مرتفعة الحنّفة، فيفصلون بين كل تسليمين بتحמידات وتهليلات وتسيّحات يرفع بها جماعة كثيرة من المؤذنين أصواتهم فيرتجّ لذلك ما حولهم من المسجد.

فإذا كان ليلة ختم كل واحد من أئمة المقامات احتفل لذلك أتمّ احتفال، وزيد في مصابيح المقام وفرشه وطيبه، وأثني بشموع كبار هائلة، ورفعت على حسك عظيمة رائحة، ويحضر الختم غالب من في المسجد من الناس، ويخلع على الإمام بعد الفراغ من الصلاة خلعة من عند السلطان، ويعطى فتوحاً (؟) زائداً على الخلعة، كلٌّ على قدر حاله.

وأول من يختم الشافعي وهو إمام مقام إبراهيم عليه السلام، ويختم ليلة إحدى وعشرين، والمالكي ليلة خمس وعشرين، والحنفي ليلة سبع وعشرين<sup>(٢)</sup> .

### من عادات أهل مكة :

عندما تحدث عن الأماكن التي تزار - محل في الجبل المشرف على المحصّب، على يمين الذهاب من مكة إلى منى، يزعم أهل مكة أن فيه قبر عبدالله بن عمر رضي الله عنه، فيخرجون إليه في إحدى ليالي ذي القعدة - أظنها الثالثة عشر - رجالاً ونساء، كباراً وصغاراً، فيبيتون هناك عامة ليلتهم، ولم أخرج معهم تلك الليلة، إذ لا أعلم أصلاً لذلك. وسألت أهل العلم بمكة فأخبروني أنهم لا يعلمون لذلك أصلاً، قال : ومن جملة خرافاتهم المتعلقة بتلك الليلة أنهم يأخذون معهم نوى التمر فيدفنونه في الأرض في ذلك الجبل تلك الليلة

(١) : ٢ - ١٠١ .

(٢) : ٢ - ١٠٠ .

ويزعمون أن من دفن شيئاً حصل له في الليلة بعدده ريالاً أو دنائير. وأغرب من ذلك ما حكى بعض أصحابنا تصديقاً لزعمهم ذلك، أن الشيخ علي بن الجمال الشافعي من فقهاء مكة المعتبرين خرج مع أهل مكة في بعض السنين إلى هذا المحل، فلما رأى فعلهم ذلك أنكره، ثم إنه جمع شيئاً من النوى نحو المائتين ودفنها، ثم وجد سبعة أخرى ودفنها، وهو في كل ذلك كالملاعب، فلما كان وقت الموسم بينما هو جالس في المسجد الحرام، إذ جاء شخص من أهل العراق يسأل عنه حتى وجده فناوله صرة كبيرة، وقال له : إن جماعة من طلبة الأحساء كانوا يقرأون هنا عندك، وقد جمعوا لك هذه الدراهم بقصد التبرك منك وهم يسلمون عليك، وهي مائتا ريال. قال : فوقع في نفسي تصديق ما زعموا وإني كنت دفنت مائتي نواة، ثم قلت : وأين السبعة التي دفنتها بعد ذلك؟ فلم أبرح مكاني حتى رجع إليّ ذلك الإنسان وقال لي : ياسيدي وهذه سبعة أخرى قد تبعني بها شخص بعدما فارقت أولئك الجماعة. وقال : أوصلها إلى الشيخ. قال : فتعجبت من ذلك، ومن موافقته للحال.

والذي أخبرني بذلك عن الشيخ ثقة عندي، ولم أدرك حياة الشيخ علي في هذه المرة، وأدركته فيما قبل هذا، ولم يتفق لي لقاءه، ولا الأخذ عنه، وكان من فضلاء الشافعية المدرسين بالحرم المكي<sup>(١)</sup>.

وقال عن مولد العيدروس: (ولأهل مكة في هذه الليلة (١٣) ذي القعدة) عمل مولد كبير في مشهد السيد العيدروس عند الشيعة، يجتمع هنالك جماعة من أولاده وأتباعه السالكين على طريقه، ويعمل هناك سماع وقراءة وتلاوة، ويجتمع فيه خلق كثير، وقد فرش المشهد كله وما حوله، وأعدت للحاضرين أطعمة وأشربة، ويستكثر هناك من المصاييح، وقد زرته في هذه الليلة رضي الله عنه ومشهده من المشاهد المشهورة بمكة، والمزارات المعظمة، وبيتهم له صيت ومكانة عند الخاص والعام<sup>(٢)</sup>. انتهى. ومن المعروف أن كثيراً من تلك العادات الخرافية قد زالت والله الحمد، وإنما المقصود ذكر أمور تاريخية مضت، للاعتبار.

(١) : «العاشي» ٢ - ١١٢.

(٢) : ٢ - ١١٢.



**الشریف زید بن محسن**  
**حاكم الحجاز من سنة ١٠٤١ إلى سنة ١٠٧٧**



## الشريف زيد بن محسن

حاكم الحجاز من سنة ١٠٤١ إلى سنة ١٠٧٧

ووصف الشيخ العياشي أمير مكة حين شاهد موكبهُ في منى أثناء حج ١٠٧٣ وهو الشريف زيد بن محسن بن حسين بن حسن بن أبي نُمَيٍّ — وبالغ في الثناء عليه.

وزيد هذا ولد سنة ١٠١٤ وتولى إمارة مكة سنة ١٠٤١ هـ وتوفي سنة ١٠٧٧ — ومع أنه وصف بحسن السيرة إلا أن ابن بشر ذكر في سوابق «عنوان المجد» مانصه: (وفي سنة ١٠٥٧ سار زيد بن محسن إلى نجد، ونزل الروضة في سُدير، وقتل رئيسها محمد بن ماضي بن محمد بن ثاري، وفعل ما فعل من القبح والفساد) انتهى، وهذا يدل على خلاف ما وصف من حسن سيرته.

قال العياشي عنه : بينما نحن جالسون — في منزل الشيخ تاج الدين المالكي في منى المطل على السوق — إذ مرَّ أمير مكة الشريف زيد في موكبهِ، وله شارة حسنة، ومعه طائفة من الأشراف والجند، ذاهباً لرمي الجمار، قد ظلل على رأسه بمظلة كبيرة من حرير، كأنها قبة خباء يحملها فارس بجانبه يُسايِرُهُ وهو في ظلها، والناس يحيونه عن اليمين والشمال، فالعوامُّ يقولون في تحيتهم : نصركَ اللهُ يا زيد، والخواص يقولون : السلام عليكم. وهو يرد على كل من حيّا له من وضيع وشريف، ولا يهمل أحداً، ويشير برأسه إلى كل من حيّا، وذلك لشدة تواضعه — رضي الله عنه —.

وهو رجل أسمر اللون، أبيض اللحية، سمح الوجه، ضربٌ من الرجال إلى النحافة أُميل.

وأثنى من حضر المجلس عليه كثيراً في سيرته وعقيدته، وأثنى عليه شيخنا أبو مهدي (عيسى الثعالبي).

وهذا الأمير من أحسن أمراء عصره سياسة وحسن تدبير، ولم تزل الإمارة في أسلافه منذ أعصار متطاولة، وأسلافه هم المشهورون بآل أبي نُتْمِي، وهو بطن من بني حسن، وإخوانهم بنو حسين لهم إمرة المدينة، وولاية الحجاز الآن بأطرافه من أطراف اليمن إلى أقصى نجد مما يلي البصرة ثم إلى خيبر مما يلي ناحية الشام ثم إلى اليمن ككلها للأمير زيد بن محسن وأسلافه، وليس لبني حسين في ولاية المدينة في هذا الزمان إلا الاسم فقط، وبعض تصرف من تحت يد الأمير زيد.

وكان هذا الأمير فيما مضى على معتقد أهل بيته كاعتقاد الزيدية ثم باينهم ورجع إلى معتقد أهل السنة، وتمذهب بمذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه وحسن اعتقاده في علماء السنة، وبالع في تعظيمهم، وكف أهل بيته عن كثير مما كانوا ينالون من أهل السنة، ومنعهم من إظهار معتقدهم.

وقد بلغنا أنهم اجتمعوا ذات يوم ولاموه على رجوعه عن مذهبهم فقال لهم : ألا يكفيكم مني أنني لم أجبركم ولم أقهركم على الرجوع عما أنتم عليه؟ إنما هو دين، لا يسع المرء فيه إلا اعتقاد ما هو الحق، واتباع ما يغلب على ظنه أنه على الحق والهدى، وقد ظهر لي صحة ما رجعت إليه، فإن رأيتم ما رأيتم، وتبين لكم ماتين لي فينبغي لكم أن ترجعوا إلى الحق والهدى، وإن لم تروه فلكم دينكم ولي ديني، فن ذلك اليوم أيسوا منه.

وقد استفاض على الألسنة أنه من الأولياء لما يرون من إجابة(؟) وكثرة عبادته، وشدة تواضعه، وإن كان تصرفات عماله لا تخلو من جور في الأموال كما هو شأن ولاية العصر.

وقد أخبرني من أثق به أنه كان ذات يوم دعا بعض عماله ليذهب إلى خُلَيْص في أيام الموسم يجلس فيها مع طائفة من عسكر رَدْعاً للصوص وتأميناً للسبل، كما هو شأنه في سائر الطرقات أيام الموسم، فاعتذر العامل بأنه مريض ولا مرض به، فألح عليه في ذلك فقال : إني مريض لا أقدر. فقال له : إن كنت صادقاً فشفاك الله وإن كنت كاذباً فأماتك الله. قالوا : وكان ذلك صُبْحاً، فلم يأت الظهر حتى مات ذلك العامل، وأمثال هذا من إجابة دعواته كثير، حتى كانت أعراب الحجاز تقول : نخاف من دعوة زيد أكثر مما نخاف من سيفه.

ومن محاسنه أنه لم يقتل قطُّ أحدًا من أهل بيته مع كثرتهم، وكثرة خروجهم عليه، وسعيهم بالفساد في ملكه، ولكن كل من أحسَّ منه ذلك يقول له : لا تَسْعك بلادي. فيخرجه من مكة فلا يزال يحارب مع الأعراب ويسعى في إفساد المملكة حتى يذهب ما بيده من الأموال فيرجع إليه صاغراً، حتى أيسوا من القيام عليه فأذعنوا له، وكثير من العوام يقولون : إنه قطب لأنه مكث في ولاية مكة أكثر من ثلاثين سنة. قالوا : ولا يمكث ثلاثين سنة في ملك مكة إلا القطب، ولا أدري من أين لهم ذلك. والغالب أن الله تعالى لا يمكن من حرمة الأمين وبلد نبيه المكين هذه المدة المتطاولة مع حسن دفاعه عنه، وكفايته أعداءه إلا من له عنده مكانة، وله به عناية، مع ما منَّ الله به من حسن الاعتقاد، والإكثار من العبادة، والطواف بالليل في غمار الناس حيث لا يعرف.

وكثير من الناس ربما وسموه بالبخل، وقد أخبرني شيخنا أبو مهدي أنه على خلاف ذلك، وأنه يعتمد بصدقاته ومعروفه الأخفياء من العلماء والأتقياء ممن ليست له وظيفة معلومة، ويبحث لهم وإلى الفقراء من معروفه بليل، بحيث لا يشعر بذلك إلا خواص أصحابه، وأما أهل المناصب والوظائف فلا ينالهم من معروفه إلا القليل فيسمونه لذلك بالبخل.

ومن محاسنه تورعه عن سفك الدماء مع شدة بسالته بحيث تضرب به الأمثال في الشجاعة في حروبه، وأكثر ما يعاقب بالمال إلا في حدٍّ من الحدود.

وكثير ما يقع من عماله ما يخالف الشرع في الجباية، ويبالغون في ظلم الرعية، ولم يُرَ في أحواله ما يغمص عليه إلا هذا.

وأما ثناء الناس عليه فأكثر من هذا كله، وأهل الحجاز يرون أنهم تحت جناح العافية وفي ظل الأمان ما دام حيًّا، ويفدون به آبائهم وأمهاتهم.

ونسأل الله أن يطيل بقاءه، ويشيد في الدارين ببناءه، ويدعم عزه لحماية حرمة الأمين) انتهى (١).

---

(١) ١ ج من ص ١٩٩ إلى ص ٢٠١.



**الأمن في عهد الشريف زيد بن محسن**



## الأمن في عهد الشريف زيد بن محسن

وقد تحدث العياشي عن الأمن في هذه البلاد في مواضع، منها قوله : وقد شاهدنا في هذه الحضرة من العافية التي يبسطها الله في الطرق والقرى، والأمان التام ما قضينا منه العجب، فن ذلك أنا ألفينا عيراً في ليل مظلم، تحمل أحمالاً من البزّ الهندي والقماش الرفيع نحو عشرين جماً، وطلبنا أحداً من أصحابها نسأله عن خبر البلد فلم نجد معها أحداً، وذهبنا نحواً من ميل فوجدنا أصحابها في قهوة مستريحين، وأخبرونا أنها لو ذهبت كذلك إلى مكة لم يتعرض لها أحد، وأخبرونا بعجائب من مثل ذلك وقعت في أيام زيد ووالده محسن، فن ذلك أنهم زعموا أن رجلاً جاء للسلطان محسن فقال : إني وجدت بالبلاد الفلانية حملاً من البزّ في الطريق. فقال له : ومن أخبرك بأنه البز فقال له : مَسَّسْتُه برجلي. فأمر بقطع رجله وقال : لِمَ مَسَّسْتُه برجلك؟! إلى غير ذلك من أمثال هذه الحكايات لا نعلم صحيحها من سقيمها. ومن لطيف ما شهدناه من أمان هذه الديار وعافيتها، أن المسافرين من مكة إلى جدة، أو من جدة إلى مكة يكترون الحمير للركوب ولا يذهب صاحب الدابة معها، فإذا ذهب المكتري إلى المحل الذي يذهب إليه أرسل الحمار، ولا عليه منه، فلا يأخذه أحد إلا ربه إن كان في ذلك البلد أو نائبه، ولكل واحد من أصحاب الدواب نائب في غير البلد الذي هو فيه يعرف دابته ويقبضها حتى يكرها له ممن يرجع إلى البلد الذي هو فيه (١). وقال أيضاً : وأعانهم — يعني الجمالين — على قطع المسافات، ما بسط الله في تلك البلاد من العافية الوافية، فلا ترى لصاً ولا سارقاً في ليل ولا نهار إلا في قرب من المدينة — كما تقدم — . وإنما تشتعل نار الحرية والسرقة في تلك البلاد أيام الموسم فقط، لاختلاط الناس واجتماع الأوباش من كل أوب. وقد عاينا من الطمأنينة في الطريق والعافية والسكون في مسيرنا هذا ما قضينا منه العجب، لأننا ما كنا نسلك هذه البلاد إلا في أيام

(١) الرحلة ١٠٩/٢.

الموسم، ونعائين مايقع بها من النهب والسرقه والروعات المتواليه، فظننا أنها كذلك دائماً<sup>(١)</sup>.

ومع ذلك فقد تحدث حوادث كثيرة، وقد يلاقي الحجاج من عنت الجمالين وأذاهم الكثير.

### المكوس على الحجاج :

قال<sup>(٢)</sup> ولما كان منتصف صفر دخل الركب العراقي المدينة المشرفة ونزلوا بركبهم شاميّ سلّج من غربيّ ذباب إلى قريب من مساجد الفتح، وكنا نخرج بعض الأيام إلى مخيمهم قصد التفرج.

وتأخر في هذه السنة قدومهم إلى المدينة لبطئهم في الطريق كثيراً وذكر لي بعضهم أنهم أخذوا فيما بين مكة والمدينة نحواً من خمسة وأربعين يوماً، بسبب أداء المكوس الموظفة عليهم من قبل الأمراء فقد أدّوا من ذلك كثيراً. أخبرني بعضهم أن جملة ما أدّوا من المكوس من يوم خروجهم من بلادهم بأصبهان، يزيد على خمسين ديناراً ذهباً لكل رأس، والخمسون عندهم معدة لهذا، يُعَدُّونها من بلادهم كل من خرج للحج فيهم يخرج زيادة على ما يحتاج من النفقة والكرء خمسين ديناراً للمكوس التي تُؤخذ منهم في الطريق، فإن كانت المكوس التي تنوبهم الخمسين فأقل لم يتضرروا بذلك لاستعدادهم لها وإخراجهم بها مخرج الصدقة ومازاد على الخمسين استضرروا به.

وقد أخذ منهم في هذه السنة عاملُ البصرة لما مروا بها ثلاثين ديناراً وذلك بأنهم لا يأتي معهم من بلادهم عسكر يحميهم في الطريق من أعرابها ومحارسها.

إلى أن قال : ناهيك بما يقع لحجاج المغاربة عند دخولهم مصر وخروجهم منها، إلا أنهم لا يأخذون إلاّ من معه تجرة، وعند الخروج من مصر لا يأخذون إلاّ من أهل المغرب الأقصى وأهل السودان متعللين بأنه ليسوا من رعية السلطان....

(١) الرحلة ٩٣/٢.

(٢) الرحلة ج ١ ص (٢٧٩).

وقد ذكر بعض المؤرخين أنَّ مثل هذا كان يقع قبل هذا الزمان من أمراء مكة للحجاج المغاربة فيأخذون منهم قدرًا معلومًا من المال على كل غنيٍّ وفقير ومن لم يكن له مال يدفع منه ذلك المقدار حُبس حتى يفوته الحج، إلى أن قيَّض الله لذلك بعض صالحِي ملوك مصر فبعثَ إلى أمير مكة في إسقاط ذلك عن الحاج، وجعل له قدرًا معلومًا عظيمًا من الأموال يأتيه في كل سنة من مصر، فانقطعت تلك المحنة...

وَعَلَّه أمراء مكة في أخذ ذلك كالذين أسلفنا ذكرهم، فيقولون نحن حماة الحرم والذائبون عنه وعن الوافدين عليه، ولولا ذلك لاختطفهم ذئاب الأعراب، ولا يقوم ذلك إلا بعساكر وحماة، ولا قيام لهم إلا بأموال، وبلاد الحجاز ضعيفة لا يفي مايتحصل من خراجها بذلك، فلا بُدَّ لنا من أموال نستعين بها على ذلك إما من سلاطين الأقطار، أو من رعاياهم إذا وصلت إلينا.

ولهذا لا يأخذ سلطان مكة شيئاً من كل مايرد من الشام ومصر والمغرب لأنه وإن كان مستقلاً في مملكته، هو في الحقيقة عامل من عمال (الخاقان الأعظم) صاحب الروم، يأتيه من مصر من الأموال والأطعمة مايقوم بكفايته وكفاية عساكره.

أما أهل اليمن فأمرؤهم من الإمامية أقاربه في النسب بل والمذهب، وبينهم مواصلات كثيرة ومحاماة..

وأما الهند فلا يقدمون إلا في البحر وغالبهم تجار فيدفعون العشر بجدّة، وإن قدم بعض كُبرائهم قاصداً الحج فقط، فإنه يستصحب معه من الهدايا والتحف ما يجلب وصفه.

وأخذ أمير مكة في هذه السنة من هؤلاء الأعجام أهل العراق أحد عشر ديناراً ذهباً لكل نفس، ستة لدخول مكة، وستة لدخول المدينة، وقد حبسهم عن المشي بعد الخروج من مكة إلى مَرَّ الظهران حتى أقاموا هناك نحواً من اثني عشر يوماً، بسبب بقية بقيت عليهم من الخراج، فلما وصلوا إلى بَدْر حبسهم أميرهم هناك أسبوعاً حتى أعطوا ثمانية دنانير أُخِرَ لكل نفس، متعللاً بانقضاء الزاد

والعلوفة بسبب التعطيل المذكور، وهذا كله سوى ما يعطونه للأعراب من يوم خروجهم من المدينة، وقد قدموا في هذه السنة بركب عظيم فيه داية الشاه وطيبه وحاجبه أو وزيره، وعدة الذين أعطوا المكس من الأعجام سوى الأعراب والخدم ثمانية عشر مئة.

# الجرانة



## الجعرانة

ذكرها من المواضع التي تزار فقال : (وهو موضع بين مكة والطائف، إلى مكة أقرب بكثير، بينها وبين مكة ١٨ ميلاً، ومنها كانت عمرة النبي صلى الله عليه وسلم في ذي القعدة حين قسم غنائم حنين كما في الصحيحين، وذكر الحب الطبري عن الواقدي أنَّ إحرامه صلى الله عليه وسلم بالعمرة منها كان ليلة الأربعاء، لاثنيني عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة. قال الحب الطبري : ومنها يحرم أهل مكة كل عام في ليلة سبع عشرة من ذي القعدة، وذلك خلاف ما ذكره الواقدي. ١هـ. قال الفاسي في «شفاء الغرام» : وما ذكره الطبري يخالف ما أدركنا عليه أهل مكة، فإنهم يخرجون في اليوم السادس عشر من ذي القعدة ويقيمون اليوم السابع عشر بالجعرانة، ويصلون المغرب بها ليلة الثامن عشر ويحرمون ويتوجهون إلى مكة، وهو يلائم ما ذكره الواقدي. قال الخطاب : وعلى ما ذكره الفاسي أدركنا عمل أهل مكة، قلت : ولا أدري متى انقطع عمل أهل مكة هذا، فإنهم الآن لا يحرمون منها، ولا تكاد تجد أحداً يعلم أنها من مواقيت العمرة إلّا من مارس كتب الفقه منهم، وأما العوام فلا يطلقون اسم العمرة إلّا على التنعيم.

ومن أغرب ما وقع لنا في ذلك، أننا لما نزلنا بالمحصب بعد تمام الحج في آخر سنة أربع وستين، بدا لنا أن نذهب من هناك إلى الجعرانة لنحرم منها بالعمرة، لأفضليتها على غيرها من الأماكن كما هو مقرر، فطلبنا من يهديننا الطريق إليها، وسألنا من هناك من الأعراب وأهل البلد، فقالوا : وما شأنكم بالجعرانة فذكرنا لهم الاعتماد، فاشتد نكيرهم وقالوا : ما نعلم أحداً يعتمر من هناك، وإنما العمرة من التنعيم، ولكنكم قوم مغاربة أهل حِمْيَل، قد يكون قصدكم إخراج كنز هناك، فَعَمَيْتُمْ قصدكم بذكر العمرة، وإلّا فأتي عمرة في الجعرانة؟ وما كادوا يصدقوننا في ذلك. فقلنا لهم : يذهب معنا أحدكم بأجرته ويشاهد ما نريد من ذلك. فاكثرينا رجلاً منهم فأسرى بنا حتى اعتمرنا.

ولمّا كان اعتنّاه صلى الله عليه وسلم منها إنّما هو في ذي القعدة في السابع عشر أو الثامن عشر، توخينا ذلك في هذه السنة، إذ أمكننا بالمجاورة في مكة هذه المدة، فخرجنا مع جماعة من أصحابنا ليلة الاثنين السابع عشر من ذي القعدة اغتناماً لفضيلة الوقت والمكان، فوصلناها بعدما ذهب طائفة من الليل، وأنخنا إلى قريب من السّحر.

ومكانها وادٍ أفيع كثير العضاه، وماؤه شديد الحلاوة غزير، وبها بثران عظيمتان مطوّقتان بالحجر المنحوت، وعنده(?) دوحات عظيمة، وعلى شفير الوادي مكان مسجد يقال : إنّ منه أحرم النبي صلى الله عليه وسلم، ومنه أحرّمنا بعد الاغتسال والركوع، وقفلنا إلى مكة ودخلناها ضحى، ومن فضائلها ما ذكره الجندي عن ابن ماهد أنّه أحرم منها بالعمرة ثلاثمائة نبيٍّ، ويقال : إنّ النبي صلى الله عليه وسلم فحّص موضع مائها بيده المباركة، فانبجس، فشرب منه وسقى الناس، ويقال : إنّ غرز فيه رحمه فنبع<sup>(١)</sup>.

---

(١) : ١ - ٢٢٦ و ٢ - ٢٨٠.

## محنة جنة كما وصفها العياشي



## مدينة جدة كما وصفها العياشي

قال في ذكر الأمكنة التي زارها لما كان مُجاوراً في مكة المشرفة<sup>(١)</sup> :

ومنها مدينة جدة :

ولمّا كان لي رغبة قوية في معرفة أرض الحجاز، ورؤية ما بها من البلاد غير الحرمين، عزمّت على الوصول إلى مدينة جدة لزيارتها وزيارة ما بها من المساجد والمشاهد، كالحلّ الذي يقال : إن فيه قَبْرَ أُمّنا حواء.

ومن جزم بأن قبر أم البشر حواء بجدة ابن خَلْكان في ترجمة ابن قلاّس الشاعر<sup>(٢)</sup> ، وذكره أيضاً في ترجمة أخرى، ولأنّها في نفسها من أعظم البقاع، فقد ورد في فضلها وفضل المقام بها والرباط فيها عدة آثار نقلها الأخباريون.

فخرجت إلى زيارتها بعد صلاة العصر من يوم الجمعة العاشر من شوال (١٠٧٣هـ) مع طائفة من أصحابنا المجاورين، وأكرى لي شيخنا أبو مهدي حماراً لركوبي.

ولم أر أشْرَعَ مشياً من حير الحجاز، ولا أَوْطأً مركباً، ولا أقلّ تعباً، مع السرعة المفرطة في المشي، فلقد كنت أنظر وأنا راكب إلى أطرافي هل يتحرك منها شيء مع الإسراع في المشي، فلا تكاد تتبين لي حركة شيء منها، مع أن مركوبي ليس من أجاودها.

ولقد أخبرت أنه كان حمار عند رجل من أهل مكة يصلي المغرب بجدة،

فيركب عليه، ويصلي الصبح بمكة، وهي مسافة القصر تحقيقاً، وهم يتغالون في ثمن ما هذه صفته منها، فيبلغ الحمار مئة دينار ذهباً، ولقد رأيت حماراً عند فقيه

(١) الرحلة ج ٢ ص ١٠٤ وما بعدها.

(٢) نص كلام ابن خلكان في آخر ترجمة نصر بن قلاّس، ج ٥ ص ٣٨٩ — تحقيق الدكتور إحسان عباس:— (وبجدة قبر أم البشر حواء (ض) على ما يقال، وقبرها هناك ظاهر يزان) . فهو لم يجزم، بل قال : (على ما يقال).

الحنفية الشيخ الزنجبيل(؟) رافقنا عليه من المدينة إلى مكة تقبحه<sup>(١)</sup> العين، فأخبرت أنه اشتراه بقريب من ذلك الثمن.

ولمّا خرجنا من مكة عن الثنية السفلى إلى مناخ الحجاج أسفل ذي طوى، عدلنا ذات اليسار قليلاً، وسلكنّا في شعاب هناك وعقاب ليست بالوعرة.

وبين مكة وجدة ثمانية قهاوي، ينزل المارّون في كل قهوة، فيستريحون ويشربون القهوة أو الماء، ويشترون علفاً للدواب :

فأولها : قهوة في مقابلة التّعيم فيما أظن في شعب مررنا عليها قرب المغرب.

والثانية : في منفسح الوادي الذي يخرج منه إلى رمال الحديدية.

والثالثة : عند بئر الحديدية عند منتهى الحرم، ومنها يحرم الناس بالعمرة، من شاء منهم، وحول البئر مسجد معطل قد تهدم أكثره، وقد طلبنا من أهل القهوة حبلاً ودّلوا حتى استقينا منها وشربنا من مائها للبركة، لما ورد في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم برك عليها حتى غزر ماؤها أو تفل فيها.

والرابعة : في قرية تُسمّى حدة قريبة من شفير الوادي الذي يأتي أصله من مرّ الظهران، وفيه أثل وعشب كثير، ومزارع إذا جاء السيل.

ثم الخامسة: حول مزرعة هناك كبيرة، يجلب منها بطيخ كثير إلى مكة مشهور عندهم بالجودة.

والسادسة :عندما يريد الذهاب الصعود إلى جبال يمر الطريق بوسطها.

والسابعة :عند متقطع الجبال حيث ينحدر الذهاب إلى مكة<sup>(٢)</sup>.

والثامنة :جدة. وقد بلغنا إليها بعدما ارتفعت الشمس جداً، ومَتَعَ النهار، واشتد الحرّ. وهي مدينة كبيرة، ممتدة مع ساحل البحر نحو ميلين في كلا طرفيها، فيها حصار<sup>(٣)</sup> متقن البناء، فيه مدافع كثيرة، وعسكره لا يفارقه.

---

(١) كذا والصواب : تقتحمه.

(٢) كذا ويظهر أن الصواب (إلى جدة).

(٣) يقصد بالحصار القلعة — الحصن.

وقد رأيت في الحصار الغربي منها ما يستغرب وصفه من المدافع طولاً وكبراً، ورأيت فيها مدفعاً له خمسة أفواه، بصنعة غريبة.

وفي مرساها سفن كثيرة كبار وصغار، وغالبها معمول بالشريط بصنعة عجيبة ليس فيها مسمار، وهي مع ذلك كبيرة المقدار، متباينة الأقطار، واسعة الأنحاء، تحمل أضعاف ما يحمل غيرها من السفن.

وأسواق البلد ممتدة مع جانب البحر، وغالبها أخصاص واسعة، مفتحة إلى البحر وإلى ناحية البلد، فيها قهاوي ومجالس حسنة، يبالغ أصحابها في كنسها وتنظيفها، ورشها بالماء، وفيها جلوس غالب أهل البلد، وقد اتخذوا فيها أسيرة كثيرة، منسوجة بشريط المسد<sup>(١)</sup> وبصنعة محكمة. وكان نزولنا بوكالة هناك قريبة للمسجد، فإذا كان الليل خرجنا إلى جانب البحر، واكثرنا لكل واحد سريراً يرقد عليه بدرهم إلى الصباح

ومسجدها الكبير من أجل المساجد، فيه أعمدة من الساج، مخروطة على هيئة أعمدة الرخام المخروط، صليب عودها، يحسبها من لم يتأملها رخاماً أحمر، وأخبرني شيخنا أبو مهدي أنه يقال : إن أعمدة ذلك المسجد مجلبت في صدر الإسلام من كنيسة بأرض الحبشة عندما افتتحها المسلمون.

وزرنا المحل الذي يقال إن فيه قبر أئمة حواء في مقبرة معلم عليها بحجارة سود، عند رأس القبر وعند رجله وفي وسطه، وقد ذرعه بعض أصحابنا فكان قريباً من ثلاث مئة ذراع، والله أعلم بصحة ذلك.

ولم أر فيها من الأفاضل إلا مفتي الشافعية الشيخ عبدالقادر، وليس عنده من العلم والرواية ما يُرغب في أخذه، وهو رجل حسن الأخلاق جالسته ساعة.

ولقيت أيضاً مفتي الحنفية الشيخ مصطفى، وهو رجل له مشاركة في العلوم، سالكت على طريق السادة (النقشبندية)<sup>(٢)</sup>. وله خبرة بكلام القوم، وفيه سخاء

(١) المسد : الليف، ولعله يقصد الخوص، فقد أدركنا الأسرة (الكراسي الطويلة) تصنع منه.

(٢) النقشبندية — وغيرها من الطرق الصوفية — موافق طريقة المصطفى — عليه الصلاة والسلام — وطريقة أصحابه، فهو حق، وما خالف تلك الطريقة فهو باطل — كما ورد في الحديث في وصف الفرق الناجية : «من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي».

ومروءة، دعانا إلى داره، وأطعمنا وسقانا، وحصلت بيني وبينه إلفة ومودة وأخوة  
في الله. وكتبت له أبياتا منها :

أشهد الله، وأملك السما  
وجميع الرسل، طراً وكفى

أنني أحببت في الله أخي  
وخليلي وحبوبي (مصطفى)

جمع الدين إلى الدنيا، معاً  
وحوى من كل خير طرفنا

أسأل الله وفاءً بالذي  
قد عقدنا، فهو يجزي من وفى

ومن ينتحل الأدب من أهل جدة، وهو معدود من فضلائها، الشيخ محمد  
مُخْبِر، ولم يتيسر لي لقاءه، وكتبت له بيتين مُؤَرِّياً بقلبه، لأننا أقنا بجدة ثلاثاً،  
ننتظر سفناً ترد من مصر بأخبار المغرب وهما :

يذكرني بالشجر برُّد نسيمه  
بلادي، فعيشي ناعم متكرر

فقال خليلي : غَلَّلِ النفس واصطبِرْ  
عسى فرج يأتي به لك (مُخْبِر)

ومن نظمه قصيدة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم وذكر فيها أعلام  
المدينة المشرفة للزيارة الرجبية، ونحن إذ ذاك بها، وبيننا أنا ذات غداة بعد صلاة  
الصبح جالس في المواجهة لوردي من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم،  
إذ سمعت شخصاً ينشد بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم بصوت مطرب  
قصيدة بائية، فقطع عليّ حسن صوته وحلاوة مقاطعه، ورونق كلامه تَمَام  
وَرْدِي، فاستمعت له حتى فرغ من إنشاده، ثم بعد ذلك سألت عنه فقل لي :  
إنه من أصحاب الشيخ محمد مُخْبِر، والقصيدة لشيخه، فبعثت من كتبها من عنده

ولم يكن لقاءه لضيق الوقت. ولنذكر القصيدة بجملتها :

مَثَّلْ لِعَيْنِيكَ دَاراً شَامَ نَجْدِ قُبَا  
من الحرير عليه حلة وقبا  
لو قابل الشمس نوراً وهي قابلة  
ضحى أو البدر في أفق السما وقبا  
وحجرة حَجَّ رُوحِي حَجَرَ كَعْبَتِهَا  
ووقفتي وقفة في بابها أدبا  
وقبة قبة الجوزاء تفبطها  
وسدرة المنتهى تعنوها أدبا  
والكوكب الأنور الدرّي تمثله  
جهرأ، فاقط عن قلب المحب خبا  
وروضة روضة الفردوس لو نطقت  
قالت : بَخْ لِكَ حُزْبِ القرب والقربا  
ثم أوردتها وهي ٧٦ بيتاً، وقال بعد إيرادها :

وهذه القصيدة كما ترى فيها أبيات سلسلة منسجمة. وفي بعضها ركابة وتعقيد، وشبه تصحيف، ولا أدري هل ذلك من أصلها أو من تصحيف الكاتب، إذ لم آخذها عن منشئها، وقد ذكر في آخرها أنه عارض بها قصيدة أولها:

مَثَّلْ لِعَيْنِيكَ خِدرًا فِي الحِمَى ضُرِبَا

بسؤال صاحبه الشيخ عبدالرحيم البرعي — أثابه الله على قصده الصالح، وجعلها من سعيه الناجح.

وخرجنا من جدة قافلين إلى مكة بعد صلاة الظهر، من يوم الثلاثاء، وسرنا على طريقنا الأولى، ننيخ بالقهاوي المذكورة للاستراحة.

ودخلنا مكة مع أذان الصبح، وأدركنا الصلاة بالمسجد الحرام (١).

---

(١) «الرحلة العياشية» ج ٢ من صفحة ١٠٤ إلى صفحة ١٠٩.



**بلدة الطائف كما وصفها العياشي**



## بلدة الطائف كما وصفها العياشي في القرن الحادي عشر

وقال العياشي — بعد كلامه على (الجعرانة)<sup>(١)</sup>

ومن الأماكن التي ينبغي للمجاور أن لا يهمل زيارتها بلد الطائف<sup>(٢)</sup> فإنَّ فيها مزارات كثيرة، وقد خرجنا إليها بعد العشاء الأخير على طريق الحاج إلى منى ثم مزدلفة، ثم إلى بسيط عرفة ليلة الثلاثاء التاسع عشر من ذي القعدة سنة (١٠٧٣) مع جماعة من أصحابنا في رفقة من أهل مكة والطائف، ومررنا على طريق الحاج إلى منى ثم تركنا الموقف شمالاً، وأنخنا هناك في قهوة قريباً من نصف الليل، والطريق من مكة إلى الطائف فيها قهاوي يستريح المارُّ بالنزول فيها، واشتراء المحتاج من طعام وعلف، كما ذلك في طريق جدة أيضاً.

ثم ارتحلنا من هناك قرب طلوع الفجر، وسلطنا مع طريق الساقية<sup>(٣)</sup> التي تأتي من أصل الجبل إلى عرفات ثم إلى المشاعر، ثم إلى مكة، ومنها تأتي المياه إلى مكة في هذه الأزمنة بعد اندثار الأخرى التي تأتي من الجعرانة، وقد ذكر المؤرخون أخبار العينين معاً، وأن التي من الجعرانة من عمل بني أمية، وهذه من عمل بني العباس، وهي من صدقات زبيدة بنت جعفر المنصور، إلا أنها ما وصلت إلى مكة إلا في دولة بني عثمان، ملوك العصر من التركمان، وقد شاهدنا في بنیان هذه الساقية ما يدل على فخامة ملكهم، وقوة اعتنائهم بأمر الحرمين. فكلما مررنا غلوة أو غلوتين وجدنا عيناً منها مفتوحاً، عليها بناء وثيق، ووجدنا الفعلة في وقتنا جاذئين في إصلاح ما وهى من بنائها، وكُنس ما تَهَوَّر من أرجائها، وهي صاعدة مع وادي نَعْمَان الأراك، الذي أكثر شعراء العرب فن

(١) الرحلة ج ٢ ص ١١٦ وما بعدها.

(٢) في الأصل: (أن يهمل) خطأ.

(٣) يقصد العين.

بعدهم من ذكره، وهو واد عظيم أفيح، منحدر من جبل نجد<sup>(١)</sup>، به أدواح يانعة، يصافحها نسيم نجد فتهتز أغصانها طرباً، وتميل إلى أن تلثم أفواه الأزهار الغضة الناعمة الملتفة بحافتي ذلك الوادي. وقد كساه الخصب من مروط الزهر ألواناً، وعمم رؤوس هضابه أقاحاً وأرجواناً، فلم نزل نسايره صاعدين إلى أن قربنا من جبل أكر<sup>(٢)</sup> فعدلنا يميناً مع بعض تلك الهضاب، وآوانا الحرّ إلى قهوة بأصل الجبل بين صخور عظام، حولها ماء صافٍ يجري على حصباء كالزبرجد، عذب بارد، سهل التناول للصادر والوارد، ما رأينا فيما سلكنا من بلاد الحجاز مكاناً أشبه ببلادنا منه، فلما زالت الشمس وتوضأنا للصلاة أخذنا في صعود الجبل العظيم الذي لا يماثله في عظمته جبل من جبال تهامة، وسلكنا في طُرُق تميل مع خراطيمه الهابطة من أعلاه، وغالب الطريق في هذا الجبل قد نقي من الصخور العظام، ونضدت الحجارة فيه، ببناء وثيق على ممره، ويقال : إنّ ذلك من عمل بني العباس لكثرة اعتنائهم ببلد الطائف ونزول ولاية الحجاز منهم به، وقد أثّرت السيول مع طول العهد في أماكن كثيرة من هذا الجبل فخربت بناءه، وكثرت للسالك عناؤه، ووجدنا في هذا الجبل أشجاراً عظيمة من العرعر وغيره من أشجار بلدنا، فأنسنا بذلك غاية، ورأينا القروء به تصيح، وتنب في أعالي تلك الصخور، فتعجبنا من ذلك، فأخبرنا أنها توجد في هذا الجبل، وما سمعنا قط أنها بأرض الحجاز، وإنما يقال إنها تجلب من الشام والروم إلى مصر والحجاز.

ولقد لقينا في صعود هذا الجبل مشقة ونزلنا عن الدواب، وأرجلتنا أوعاره وأغواره كُرْهًا، وما كدنا نصل أعلاه حتى تمكن وقت المغرب وصلينا، وتلفعنا بثيابنا لشدة البرد، وتعجبنا من صنع الله وبديع قدرته، فقد قاسينا أول النهار من شدة الحر وسمومه ما كادت العظام منه تذوب وتتفطر القلوب. وكابدنا من شدة البرد آخره ما ارتعدت المفاصل منه، وكَلَّتِ القوى عنه. ثم وصلنا إلى قهوة هناك ونزلنا بعد العشاء، وطلبنا خِصّاً يَكُنُّنا من شدة البرد، فأدخلونا محلاً، فأوقدوا فيه

(١) الصواب (السراة) واسم «نجد» هنا يطلق على طريق في تلك الجهة (كرا). فوضع بين الوجه وأم لج. وهو مفيض سيول أودية المدينة في البحر.

(٢) كذا في الرحلتين «العياشية» و«الناصرية» والصواب (كرا).

ناراً عظيمة فاصطلينا بها عامة ليلنا، وحمدنا الله على ذلك. وكان في إبان الحر الشديد، ولذلك خلفنا ثيابنا بمكة، ولم نلبس منها إلا ما يوافق الوقت، وقضينا عجباً من شدة الحرّ والبرد معاً في المكانين المتقاربين.

ثم ارتحلنا من ذلك المكان قرب صلاة الصبح وهبطنا عقبة هناك هي دون التي طلعتها بكثير إلا إنها وعرة، وسلطنا في شعاب ذات مياه غزيرة.. وثبتت ملتف، إلى أن خرجنا على قرن الثعالب<sup>(١)</sup> الذي هو ميقات أهل نجد، وبازائه قرية ذات مزارع وأشجار من أنواع الفواكه، حولها واد يسيل ماؤه، وتجاوزناها قرب الطلوع، وسلطنا بين تلؤل هناك في صعود وهبوط واستواء إلى أن وصلنا بلد الطائف وهي قصور في مستوى من الأرض، تحيطها جنات من نخيل قليل، وأعشاب كثيرة، وفواكه مما يشتهون.

وقصدنا المسجد الأعظم. فأول من لقيناه على بابه رئيس المقرئين، وأستاذ المجوّدين، الذي لا يشاركه في تحقيق قَرْن القراءة بأرض الحجاز غيره، ولا يجهل عند الخاص والعام من أهل تلك الديار أمره، الشيخ عبدالعزيز بن حسن بن عيسى التواتي — رضي الله عنه — ولم نكن نعرفه قبل ذلك، ولا يعرفنا إلا بالخبر، وإنما عرف كلاً منا بصاحبه السيّد الأجلّ الفقيه الأمثل، السيد عمر المدني، من متفقهة أهل المدينة، تعرفنا به فيها، فوجدناه جالساً مع الشيخ المذكور، عند باب المسجد، فرحّب بنا الشيخ غاية، وأظهر لنا من بشره النهاية، وطلب منا النزول عنده في داره، وأقسم على ذلك جهد يمينه، وبذل من القَرَى المستطاع من ملك يمينه، فدخل معنا إلى المسجد، ووصل معنا إلى محل الزيارة، فزرنّا وصلينا في المسجد، ثم ذهبنا إلى المنزل، وأنزلنا في أطيب مكان فيه، وأدخل أمتعنا ودوابنا.

فلما استقر بنا المجلس، وخرج عنا في بعض شؤونه قلنا لصاحب لنا : آتانا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً. فخرج إلى السوق واشترى لنا ما يصلح

(١) هنا خلط بين قرن الثعالب وقرن المنازل، فالأول جبل مُطَلٌّ على عرفات وليس بمحل الإحرام، وأما الثاني فقرن المنازل وهو ما يعرف الآن باسم (السليل). والمؤلف يقصد وادي (قَرْن) وهو أعلى وادي قَرْن المنازل (السليل الكبير)، وقرن هذا — ويسمى قرن المحرم — محل إحرام المازرين به.

للوقت، فلما وضعه بين أيدينا دخل علينا الشيخ، وقد رآه حين دخل وهو يقول :  
واعيبياه!! واعيبياه!! يكررها. وهي لغة أهل البلد — كيف تشترون الطعام وأنتم  
في منزلي؟! ولكن الذنب مني إذ أبطأتُ عليكم بالقرى، فاعذروني، وما كنت  
مشتغلاً إلا في ذلك، فأحجلنا واعتذرنا له فلم نبرح من مكاننا حتى أتى  
بالغداء، فأكلنا واسترحنا.

ولقد أجزل لنا القرى مدة الإقامة فجزاه الله خيراً. إلا أنه لما بلغ خبر قدومنا  
إلى جواد زمانه، وحاتم أوانه، وجئتيد عصره، وغوث قطره، السيد عبدالرحمن  
المكناسي — وكان إذ ذاك بالطائف — بعث إليه بعض خدامه بالمحتاج إليه من  
طعام وإدام ولحم ونحو ذلك، وقال له : إنما علينا قراهم لاعليك إلا أنهم لما نزلوا  
في منزلك لم يمكن إخراجهم من عندك، فعليك المنزل وعلينا التزلُّ والقرى، ولم  
يزل يتعاهده بأمثال ذلك إلى أن خرجنا.

ولما كان الغد ذهبنا لزيارة السيد عبدالرحمن في منزله، وكان بأعلى البلد،  
فدخلنا عليه وبالغ في الترحيب والتحقي، وهشَّ وبشَّ، وسأل عن الحال وأظهر  
السرور بقدومنا، وكنا لقيناه بمنزله بمكة يوم دخولنا أو غده، وهو مُتَهَيِّءٌ للخروج  
إلى الطائف في يوم لقائنا له، ووجدنا ركائبه ببابه، وآلة السفر بين يديه، فلم  
تطل مجالستنا له، واعتذر لنا عن ذلك، وأخبرنا أنَّ الخروج في ذلك الوقت لم  
يكن باختياره، وأنه لِيَوَارِدَ قَهْرِيٌّ، وكان اتخذ ذلك عادة له منذ أعوام كثيرة، إذا  
أقبل رمضان وقرب خرج إلى الطائف، وكثيراً ما يستهلُّ له رمضان في  
الطريق، لأنه كان يسير سيراً رفيقاً، وربما أقام، وربما أفطر بعض أصحابه يوماً أو  
يومين في الطريق لأجل السفر، فاتخذ الجهال والحسدة له ذلك ذريعة، وتطرقوا  
منه إلى الوقوع في عرضه، والالتهام له في دينه، وقالوا : إنه إباحي، وما جعل  
السفر في هذا الوقت ديدنه إلا ليتوصل به إلى الأكل في نهار رمضان، وإلا فأئى  
ضرورة تلجئه إلى الخروج في هذا الوقت كل سنة... إلى غير ذلك مما يلقيه  
الشیطان إلى أوليائه من شياطين الإنس والجن (يوحي بعضهم إلى بعض زخرف  
القول غروراً) سنة الله في أنبيائه وفي أوليائه بالإرث، إذ جعل الله لكل نبي  
عدواً من المجرمين. وكذلك ولّي، على مانصّ عليه غير واحد، على أن هذا الشيخ  
ممن ظهرت شواهد صدقه في حاله، واشتهرت كرامته، وعلمت ديانته، فينبغي

التسليم له، سَيِّمًا في الأمور التي لا تصادم الشريعة كهذا، وقد أخبرني(ض) ببعض حاله في سفره هذا، وكأنه توهم أنني سمعت شيئاً مما يقوله الناس في ذلك وقال لي : والله ما كنت أخرج من هذا البلد مع غلبة الحال(؟) وقوة الوارد حتى أسمع النداء : يا عبد الرحمن الآ تخرج تخاف على إيمانك!! فأخرج حينئذ خوفاً على نفسي.

— ثم أطل في الاعتذار عنه بتعليلات صوفية —

وقال : وأحوال هذا الشيخ في الوجود غريبة، وأعظم شاهد على صدقه في حاله زهده في الدنيا، مع كثرة ما يجبى إليه منها، فلا يبالي من أخذها من يده من غني وفقير، ومأمور وأمير، ورفع همته عن الخلق سِيا أرباب الدولة، فإنهم لا يَرَوْنَ في مكان أذكَّ منهم في بابه. ولقد كنا عنده في منزله في الطائف فاستأذن عليه السيد حسن بن زيد، أحد أولاد السلطان زيد، قَلْبًا بِلَآئِي ما أذن له، وعند دخوله لم يقم له، ولا اهتبل له، وغاية ما قال له — كالمعتذر عن تأخير الإذن — : إنا اشتغلنا بهؤلاء السادات، وما هم دونك في المكانة عندنا، وإن كان لك حق الشرف، فلهم حق النسبة إلى الله، وطلب العلم، والغربة أو نحو من هذا الكلام، ولم يأنف ذلك الشريف من هذا الكلام مع ما هو فيه من حداثة السن ونخوة الملك والشرف بل أَلَانَ الكلام بين يديه، وتلطف. وذلك شأن هذا الشيخ مع أرباب الدول، وأهل المناصب الدنيوية، وسنذكر بقية أخباره عند ذكر من لقيناه بمكة من أهل الفضل.

ولم نلق بالطائف أحداً ممن ينتسب إلى علم أو صلاح، سوى الشيخ عبدالعزيز الذي نزلنا عنده، وأصله من المغرب من بلاد(اوكرت)<sup>(١)</sup> من بلاد(تيجوران) وشهرته بالتواتي، وقد جال في المغرب وقرأ على كثير من علمائه كسيدي الصغير ابن المنيار التادلي، ودخل فاساً وقرأ على سيدي عبدالواحد بن عاشر وعلى غيره، ثم ارتحل إلى المشرق قديماً بعد الأربعين وألف، ودخل القاهرة، وأتقن القراءة على مقرئها الشيخ سلطان، وختم عليه إحدى عشرة ختمة، وأجازه بالقراءات السبع، بل وبالعشر وكتب له خطه بذلك، ثم انتقل

(١) الكاف فوقها ثلاث نقط إشارة إلى أنها تنطق بين القاف والكاف والغين.

إلى الحجاز وحج، ثم استوطن الطائف منذ أعوام كثيرة، وتزوج امرأة من أهله، ورزق منها عدة أولاد، وله عند أهلها مكانة. يحج كل سنة ويحضر الموسم.

— ثم ذكر أنه سمع منه المسلسل بسورة الصف، وقرأ عليه من أول الفاتحة إلى قوله تعالى: (مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً) بقراءة نافع وأنه أجازته وأورد نص الإجازة ونص سند المسلسل —.

وقال : وأما الأماكن التي تزار في بلد الطائف :

١ — فنها البلد نفسه فقد وردت آثار تدل على فضله، وأنه منقول من الأرض المقدسة، نقله جبريل عليه السلام. وورد في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم حرّم عِصَاهُ وَجَّحٌ، وهو الطائف، وهو عند الشافعية كحرم مكة لايقطع شجره، وكفاه هذا فضيلة شارك فيها الحرمين الشريفين.

٢ — قبر عبدالله بن عباس رضي الله عنها في قبلة المسجد من يمينه، عليه بناء فخم، وحوله على يمين الداخل من الباب قبر محمد بن الحنفية، وبإزاء قبر ابن عباس قبر يقال إنه قبر عبدالله الطيب الطاهر، ولد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

٣ — المسجد الأعظم في محل نزول عسكر النبي صلى الله عليه وسلم عند محاصرة ثقيف، وفي صحن المسجد مسجد يقال إنه منزل النبي صلى الله عليه وسلم في الحصار المذكور، وفيه محل يقال : إنه محل قبة أم المؤمنين أم سلمة وقبة أم المؤمنين عائشة — رضى الله عنها — وخبر حضورهما معه صلى الله عليه وسلم وأنه اتخذ لكل واحدة قبة، ومصلاه بين القبتين المذكور في السير.

وآثار حصن ثقيف الذي انحازت إليه بعد الهزيمة وحوصروا فيه باقية إلى اليوم.

٤ — أثر ظلف الغزالة، يقولون إنها أثر غزالة جاءت النبي صلى الله عليه وسلم وسلمت عليه في ذلك المحل، ولم نر لذلك ذكراً في شيء من كتب السير وأخبار معجزاته صلى الله عليه وسلم.

٥ — مسجد على شفير الوادي بأعلى البلد، فيه شجرة كبيرة أظنها سدرًا، لها أصلان متقاربان بينهما تمر الشاة، يقال إنها الشجرة التي اعترضت للنبي صلى الله عليه وسلم في طريق له فأنشقت شقين، حتى مر بينهما لثلا تعنته فيمرميناً أو شمالاً، وخبرها مذكور في بعض الأحاديث. ولم أر من ذكر أنها في هذا المحل، ولا أنها باقية إلى هذا العهد، وأظن أنَّ حديثها مذكور في «معجم الطبراني الصغير».

٦ — وهناك مسجد آخر على شفير الوادي قريب من هذا يزار أيضاً. ولا أذكر شيئاً من خبره.

وفي هذا البلد أسواق حافلة، يحضرها الناس من أطراف نجد، ويجلب إليها من الحبوب والثمار والزبيب والعسل ما قضينا العجب من كثرته، بحيث يخيل إلينا أننا لم نرمثل ذلك في الكثرة من الأسواق العظيمة.

ولم تطل إقامتنا في هذا البلد لقرب زمان الموسم، ولأنَّا وجدنا به مرضاً كثيراً فاشياً في أهله، وأخبرونا أن ذلك شأنه في السنة التي تكثر فيها أمطارها كهذه السنة، وإنما كانت إقامتنا فيه بقية يوم الأربعاء ويوم الخميس ويوم الجمعة.

وخرجنا منه ليلة السبت قريباً من نصف الليل على طريقنا التي مررنا عليها ذهاباً، ووصلنا قرن الثعالب الذي هو ميقات أهل نجد<sup>(١)</sup> بعد طلوع الفجر، ونزلنا حتى توضحنا وصلينا، وأحرمت من هناك بعمرة ولم اغتسل للإحرام لبرد الماء والهواء، بل اقتصرنا على الوضوء.

ثم صلينا الصبح في الميقات، وذهبنا ومررنا على القهوة التي بتنا بها قبل عند طلوع الشمس، وانحدرنا مع العقبة الكؤود عقبة أكرى<sup>(٢)</sup> المتقدم ذكرها، وتعجبنا من صعود إبل أهل ذلك البلد فيها، وهبوطها بأحمال الفاكهة الثقيلة، مع

(١) هذا قرنُ الحرم وليس قرن الثعالب فذلك جبل مشرف على عرفات، وقرن هذا أعلى قرن المنازل المعروف الآن باسم (السيل) الذي هو ميقات أهل نجد.

(٢) الصواب : كرا.

كثرة الأوعار، ومضايق الصخور الكبار، مع الأحجار المعترضة فيها، المشرفة على المهاوي البعيدة، وما وصلنا إلى القهوة التي بسفح الجبل حتى اشتد النهار، وحى وطيس المهجير، فاتقينا بأخصاصها وهج الظهيرة إلى أن فاء الفياء، فأثرنا الركب، وعالجنا بقية الحر في التلوي مع أطراف تلك الشعاب، وما وصلنا وادي نَعْمَان الأراك إلا بعد العصر، وسائرناه مع العشي مسيرة الخل الرقيق، والخذن العشيق، نكرع من عيونه المترعة التي هي من أصل الساقية المتقدم ذكرها، إلى أن وصلنا إلى القهوة التي هي على حَدِّ بسيط عرفات بين العشائين، ونزلنا بها في أرغد عيش، حول عين من الساقية تجري على وجه الأرض، وصلينا صلاة العشاء، وتعشنا ثم أغفينا إغفاء، ثم ارتحلنا قريباً من ثلث الليل الآخر، ومررنا بنمرة، ثم بالمأزمين، ثم بجمع، ثم ببطن مُحَسَّرٍ، كل ذلك ليلاً، فطلع الفجر ونحن بِمَنى، فدخلت مسجد الخيف، وصليت فيه الصبح، وليس به داع ولا مجيب. وقد كان في وقت الموسم ربما لا يجد الإنسان أن يضع جبهته من الأرض أحياناً لكثرة الزحام.

وتأملت بسيط منى وشعابه، وتبينت سعتها وامتدادها وكانت في أيام الموسم ربما يخيل إلى الناظر ضيقها لكثرة الخلق.

ومن رأى منى وما حولها من الأماكن في غير أيام الموسم علم حسن تشبيه من قال : من أراد أن ينظر إلى الدنيا بعد انقراض أهلها فلينظر إلى منزل الركب بعد ارتحاله.

ثم دخلنا مكة ضحى يوم الأحد، وأحللت من عمرتي، ووجدنا مكة قد غصت بسكانها، والوفود ترد عليها من كل أوب. والله المنة<sup>(١)</sup>.

---

(١) «الرحلة العياشيّة» ج ٢ من ص ١١٦ إلى ص ١٢٥.

**في الطريق إلى المدينة المنورة**



## في الطريق إلى المدينة المنورة

المكاريون من عرب الحجاز: قال : واكثرنا من عند أناس من عرب الحجاز، ليس لهم دين ولا مروءة، كلما عقدنا معهم عَقْدًا، حلوه، وأبرمنا أمراً نقضوه، طلباً لزيادة في الكراء، إلا بعد شدّ الأحمال على الجمال.

عنزة في طريق المدينة :وقال : ولما ارتحلنا من جديدة جدوا في السير، وساروا سيراً حثيثاً. ونزلنا قبور الشهداء عند طلوع الشمس، ثم ارتحلنا من هناك قبل الظهر، وساقوا سوقاً عنيفاً، وكانوا يتخوفون عادية من لصوص عَنَزَة في تلك المسافة، وما غابت الشمس حتى دنونا من جبل مفرح.<sup>(١)</sup>

وكان معنا في القافلة شيخ حرم المدينة، تجدد في تلك السنة، وقدم من اصطنبول، وعزل الذي كان قبله، فقدم مكة أولاً وحج، ثم سار إلى المدينة، وعندما وصلنا السبيل الذي هناك وجدنا طائفة من عسكر المدينة جاءوا يتلقونه، فأمن الناس واطمأنت قلوبهم، وخرج شيخ الحرم من محفّته وليس أحسن ثيابه، وركب فرسه وسرنا سيراً حثيثاً فوصلنا ذا الحليفة نصف الليل<sup>(٢)</sup>.

وقال أيضاً : (وكان المحل — من ذي الحليفة إلى الفريش، محلّ خوف، لأن تلك المسافة يطرقها لصوص عنزة، وهو في درك بني سالم ومنازلهم بعيدة عنها، وصاحبنا المكاري من بني سالم فطار قلبه خوفاً من عنزة، ولم نزل نسير رويداً طول الليل إلى أن وجدنا أول القافلة ببطحاء الفريش)<sup>(٣)</sup>.

العرب والركب الشامي :قال : (ثم خرج الركب الشامي من المدينة على وجل عظيم من العرب الذين يميرون بهم في طريقهم، وقد كانوا قد أوقعوا

(١) : «العياشية» ٢ / ٢٨٥.

(٢) : «العياشية» ٢ / ٢٨٦.

(٣) : «العياشية» ١ / ٦٢.

بالركب وقعة شنيعة في ذهابهم (٢) قرب تبوك وأخذوا مئتين من إبل الركب، وأموالاً لا تحصى، وقتلوا أقواماً. وسبب ذلك أنه كانت لهم إتاوة على الركب في كل سنة، يأخذونها من أميرهم، كما هو شأن أرباب الدرك في كل طريق، يعطونها من بيت المال، وفي هذه السنة غزل الأمير الذي كان يأتي بالركب كل سنة، واستبدل به غيره ممن لا يعرف حال الطريق وأعرابها، فلما جاءته شيوخ العرب أرباب الدرك لأخذ ما كان لهم عادة من عند السلطنة منعهم من ذلك، وأغلظ لهم في القول، وظن أن قوة عسكره تحميهم منهم، ولم يعلم أن من قبله من الأمراء ما حملوا لهم بذلك إلا لعجزهم عن مقاومتهم، فراجعوه في ذلك، وناشدوه فصّتم على الامتناع، فلما أسوا منه شتوا الغارة على الركب فدافعهم قليلاً فانهمزم، فنهبوا من الركب شيئاً كثيراً، فلما رجع لم يخرج من المدينة حتى بعث نجيباً إلى الشام ليأتيه المدد، وواعدهم موضعاً معروفاً في الطريق، ومع ذلك التزم للأعراب بأزيد مما هو عادتهم، فسلم الله تعالى الركب بسبب ذلك (١).

**الجهل والفقر هما أصل الداء:** لاشك أن كثيراً من الأمراض الاجتماعية في كل أمة وفي كل زمان ومكان، إنما تنشأ عن الجهل وعن الفقر، وهكذا كانت حالة أبناء البادية في عصر الرحالة العياشي، كما وصفها، وكما هو معروف. قال في كلامه على المدينة المنورة، أثناء الزيارة الرجبية: (وَقَدْ خَلَقَ كَثِيرٌ مِنَ الْأَعْرَابِ، وَأَكْثَرَهُمْ عَرَبٌ جَفَاءٌ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دِينٍ وَلَا مَذْهَبٍ، جَلْهُمْ لَا يَعْرِفُ صَلَاةً وَصُومًا، فَتَدْخُلُ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ الْمَسْجِدَ غَاسِلِينَ أَطْرَافَهُمْ يَرِيدُونَ الصَّلَاةَ عَلَى زَعْمِهِمْ، فَيَقِفُ أَحَدُهُمْ مَلِيًّا ثُمَّ يَسْجُدُ عَلَى قَدَرِ مَا يَرَى، إِمَّا ثَمَانٍ سَجْدَاتٍ أَوْ عَشْرَ سَجْدَاتٍ أَوْ أَكْثَرَ عَلَى حَسَبِ نَشَاطِهِ ثُمَّ يَنْصَرِفُ، وَغَالِبُهُمْ عَلَى هَذَا الْوَصْفِ، وَمِنْهُمْ أَفْرَادٌ يَدِينُونَ بِدِينِ الْحَقِّ، وَسَلَامُهُمْ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : حَيَّا اللَّهَ مُحَمَّدَ . رَافِعِينَ بِهَا أَصْوَاتَهُمْ ..

وأخبرني شيخنا المُلّا إبراهيم عن الشيخ القشاشي أنه بينما هو ذات يوم عند المواجهة، إذ جاء أعرابي في شملته، وبیده عصاه، حتى وقف أمام الوجه الشريف، فضرب بعصاه الأرض مرتين وهو يقول : يا محمد يا محمد لا تقل أنا ما جئتك، ها أنا، وذهب ولم يزد على ذلك.

(١) : «العياشي» ١ / ٢٤٦.

وكان الشيخ يقول : عسى أن يكون ذلك نافعا له عند الله فإن ذلك مبلغ علمه....

وبالجملة فعرب الدرب والحجاز وتهامة ونجد أجهل العرب، وأكثرهم جفاء، قلما تجد أحدهم يحسن رسوم الشريعة الظاهرة من صلاة وصيام إلا القليل.

وعوام الأعراب والبربر بمغربنا بالنسبة إلى هؤلاء، فقهاء، فلا تجد عاميًا بالمغرب وإن بلغ الغاية في الجفاء إلا وهو يعلم أن الصلاة ذات ركوع وسجود وإن كان لا يحسن أن يقرأ فيها، ويعلم وجوب صوم رمضان، بل هو أشد عندهم من الصلاة بخلاف هؤلاء، فقد أخبرني مخبر عن عرب الدرب أنه سأل بعضهم هل صام أم لا؟ وهو رجل كبير كهل، فقال : إني إلى الآن لم أضُم، لكن أبي صام ثلاثة أيام. فاستفهمه عن ذلك فقال : إن الرجل عندنا إذا قارب أوان الهرم والشيخوخة صام ثلاثة أيام، فيقولون فلان صام، وذلك علامة بلوغه حد الكبر، وأما قبل ذلك فلا يعرف صياماً ولا غيره، وهم جديرون بذلك لبعدهم من الأمصار، وقلة القرى في بلادهم، فلا يجدون أحداً يعلمهم الخير ولا يرشدهم إليه، وعلى تقدير دخولهم الأمصار في بعض الأحيان فلا يلقي إليهم أحد بالاً، ولو رأهم أكبر فقهاء الأمصار يصلون الصلاة المتقدمة من تتابع السجودات لا يزيد على أن يضحك منهم، أو يتغافل ويذهب عنهم، فتى يعرف هؤلاء صلاة أو صياماً أحداً من حدود الشريعة؟.

ولقد رأيت رجلاً بالينبع ظهر الشيب في مفرقه، وسألته عن مكة فقال لي : ما حججت قط. وبينه وبين مكة ثمانية مراحل(?)، وسألته عن المدينة فقال لي : دخلتها مرتين أو ثلاثاً. وبينه وبينها ثلاثة مراحل، وأمثال هؤلاء كثيرون<sup>(١)</sup>.

---

(١) : «العيشية» ١ / ٣١٢.

## من مكة إلى المدينة

ولنرافق رحالتنا — بعد أداء الحج ووصف المشاعر المقدسة في مكة وآثارها في رحلته إلى المدينة، حيث يصف لنا كثيراً من المواضع التي مرَّ بها.

**الطريق من مكة إلى المدينة :** قال (١) : (ولما كان يوم الأحد الموفي عشرين ذي الحجة، أخذ المغاربة في الرحيل من مكة بعد ما قضوا أوطارهم واشتروا تجارتهم، وهم أول الأركاب الواردة من الآفاق خروجاً من مكة. بل لا يخرج قبلهم إلا بعض قفول أهل المدينة المشرقة، فطفنا طواف الوداع ضحى وخرجنا إلى منزل الحاج وهو الشبيكة. وقال — فيما تقدم (٢) : والتحقيق ما عليه كثير من المؤرخين أن ذا طوى ليس بينه وبين مكة وإدٍ آخر، وهو الوادي الذي وراء قيعقان، وبأسفله الموضع المسمى بالشبيكة.

ثم ارتحلنا من الشبيكة وهي الثنية السفلى التي بأسفل مكة، ومنها خرج النبي صلى الله عليه وسلم.

قال ابنُ رُشَيْدٍ في رحلته : وذكر بعض أئمتنا أن الخروج إلى عرفات من الثنية السفلى أيضاً، فروى عن الحافظ أبي محمد علي بن أحمد الأندلسي قال : كداء الممدودة هي بأعلى مكة عند المحصب، خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذى طوى إليها أي أصعد إليها، وكُداء بالضم والتنوين، بأسفل مكة عند ذى طوى، بقرب (؟) من شعب الشافعيين، عند قيعقان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم منها إلى المحصب، فكأنه صلى الله عليه وسلم ضرب دائرة في دخوله وخروجه، بات صلى الله عليه وسلم بذى طوى، ثم نهض إلى أعلى مكة فدخل منها، وفي خروجه أتى أسفل مكة ثم رجع إلى المحصب. قال أبو محمد الأندلسي الظاهري : أخبرنا بذلك أحمد بن محمد العبادي (٣) عن كل من لقي بمكة من أهل المعرفة بمواضعها من أهل العلم بالأحاديث في ذلك. قال ابن رشيد : وإنما سلك رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الطريق علقاً شبه

(١) : ١ / ٢٢٧-٢٢٨.

(٢) : ١ / ١٩٠.

(٣) الصواب : العذري.

دائرة، لأنه لا يحصل التيامن في النزول والدخول إلى مكة والخروج منها إلا كذلك، فتأمله والله أعلم. قلت : وما نقله ابن رشيد عن ابن حزم من خروجه صلى الله عليه وسلم إلى عرفات من كذا لم أر من ذكره من أهل السَّير والحديث، مع شدة تتبعهم لأفعاله وحضور جمع من المسلمين لم يجتمع مثله قط في حياته صلى الله عليه وسلم، ومثل هذا لا يكاد يخفى من أفعاله في ذلك الجمع العظيم، فقد حُفِظَ من أفعاله صلى الله عليه وسلم في تلك الحجة الحفْيُ والجلِّي حتى مباله عليه السلام في الشعب قبل الوصول إلى مزدلفة، فكيف يخفى هذا على أئمة الحديث والسَّير؟ بيِّد أنَّ الحافظ أبا محمد بن حزم مُغرَى بجمع الغرائب مع سعة اطلاعه ووفور علمه، وكثرة حفظه الذي لا ينكره له موافق ولا مخالف، فقد ذكر بعض الأئمة أن أبا محمد بن حزم ساق حجة الوداع في كتابه الذي أفرده لحجة الوداع مساقاً لا يمكن أن يسوقها كذلك، حتى بعض من حضرها لكثرة ما جمع، ومبالغته في التتبع للطرق وجمع الروايات وترجيحها، وهو أهل لذلك.

والمذكور عند سائر المحدثين أنه صلى الله عليه وسلم لم يزل نازلاً بالأبطح من يوم دخوله مكة إلى أن ارتحل ذاهباً إلى منى يوم التروية، ويبعد أن يرتحل من الأبطح وينحدر إلى مكة، ثم يخرج من كُدى ثم يصعد إلى كداء فينزل منها إلى الأبطح فيذهب إلى منى من غير حاجة أكيدة، لما في ذلك من المشقة الفادحة الحاصلة من تحليقه بأمكنة متعددة حتى يعود إلى المكان الذي ارتحل(منه)، ومثل هذا ليس من الأفعال الجليَّة، ولو فعله صلى الله عليه وسلم لكان فيه أقوى دليل على مشروعيته وتأكيد العمل به، ولسأله أصحابه عن السير في ذلك لمخالفته للعادة مخالفة قوية، ولو كان ذلك لنقل نقلاً مستفيضاً، وصار من أفعاله المطلوبة، وليس هذا مثل إدارته ناقتة في محل، لخفة الإدارة، وقد تكون لغرض اقتضاه الحال، مثل قصد العدول إلى ناحية، أو إرادة تكليم أحد، فدارت الناقة لأجل ذلك، وذلك كثير ما يقع للإبل، ومع ذلك نُقِلَ، فليتأمل ما ذكرنا، والله أعلم<sup>(١)</sup>.

(١) : «العياشية» ٢٢٧/١ - ٢٢٩.

## وادي الشريف (مر الظهران) :

وكان ارتحالنا من الشبكة قبل الظهر.

ونزلنا من الظهر الوادي المسمى بوادي الشريف بعد العصر بقليل... وبتنا هناك.

### عسفان :

وفي الغد ارتحل الناس بعد طلوع الشمس وسرنا يومنا على الطريق المعهودة، ولم نقبل حتى نزلنا بعسفان بعد المغرب.

### خليص :

ثم ارتحلنا وجئنا إلى خليص قبل الظهر، في حرّ كثير، مات فيه أناس، ومرض آخرون، وقيل الناس فيه، ثم بدا لهم في المبيت لدفن من مات.

وفي آخر ذلك اليوم جاء إلينا مشايخ الركب وكبراؤه بالرحيل ليلاً نجاور، وبالغوا في الحث والاعتذار، ورددناهم بأمر محتمل، وهم لا يشكون أنا قبلنا كلامهم، وكاد أخونا سيدي عبدالرحمن الذي كان سبباً في المجاورة أن يميل إلى قولهم لما حصل له من المرض، وما رأى من إلحاحهم علينا وإقسامهم، فلم أر رأيهم في ذلك، وصممت على المجاورة، لأنني خرجت من مكة غير مودّع وداع مفارق، ولو ذهبت كذلك إلى المغرب لبقيت حسرة في قلبي ماشاء الله.

### وقال في موضع آخر :

تم سرنا — من مكة — مع رفقة ليس فيها أحد من أبناء جنسنا وضافت علينا الأرض بما رحبت، وأساء الأكرياء معنا في الركوب والنزول والحملان...

ونزلنا في خليص، في رأس العين بقهاوي هناك، واستطال علينا المكارون، إذ ليس بالقافلة أحد من المغاربة وقالوا : إن أمتعتكم ثقيلة، فإما أن تزيدوا في الكراء، وإما أن نطرح لكم أمتعتكم هنا حتى يقدم عليكم الركب، وزدنا لهم في الكراء.

## مسيطرة (مستورة) :

ومررنا بمسيطرة ظهراً، ولم يقل الناس لكون الهواء فيه بعض البرودة، وساروا يومهم ذلك حتى العشاء، ونزلوا قرب سبيل محسن.

## قديد :

ثم ارتحلنا من خُلَيْص، ومررنا بقديد في الصُّحَى الأعلى، ولم يُقَل الناس في ذلك اليوم، لأنَّ الهواء فيه بعض رطوبة.

## السبيل بين قديد والجحفة :

قال : ( ومررنا بالسبيل الذي هناك قبل العصر، وفيه ماء قليل، وحوله ناس من الأعراب يبيعون العلف والحبيب والرطب، يأتون بكل ذلك من القرية التي بإزائه، وبينه وبينها عشرة أميال على يمين القادم من مكة، ولم نبت ذلك اليوم حتى قاربنا الرمل الذي دون الجحفة )<sup>(١)</sup>.

## رابغ :

ثم ارتحلنا منه غداً، وجئنا إلى رابغ عندما اشتدَّ الضحى، ونزل الناس به قائلين ثم بدا لهم في المبيت خوفاً من العطش بالبزوة، إن باتوا بها ليلتين. فلما صلينا الظهر برز الناس إلى جانب الوادي الغربي، وكانوا في النهار متفرقين في القهاوي، وفي الأجنَّة، ونزل بعضهم أعلى الوادي، وبعضهم أسفله، واجتمعوا عند المبيت إلى محل يمكنهم منه التبكير.

## سبيل محسن في البزواء :

(ثم ارتحلنا من رابغ، وبالغ الناس في محل الماء خوفاً من العطش، لكون البزوة معروفة في أيام الشتاء، فضلاً عن أيام الحرّ — بذلك. وقد أخبرنا شيخنا محمد بن مساهل الطرابلسي، أنه لما حج في سنة سبع وستين خرجت عليهم ريح

---

(١) : «العياشية» ١ / ٢٢٩.

في هذا المحل أهلكت كثيراً من الناس، وكان ذلك في أيام البرد، ولأجل مايقع في هذه المحل من العطش اتخذ فيه سييلان للماء يجلب إليهما من نحو مرحلة، أحدهما يسمى سبيل محسن إضافة لبانيه ومحبه الأير محسن والد زيد بن محسن أمير مكة، وهو الذي يلي مسيطرة، والآخر لولده زيد وهو الذي يلي بذرأ، وقد قسما المسافة مابين بدر ومسيطرة أثلاثاً في التقدير، إلا أنها قل ما يوجد فيها ماء، ليسارة ما يحمل إليهما من الماء لبعد الشقة<sup>(١)</sup>.

ثم ارتحلنا من هناك، ومررنا بالسبيل الآخر ظهراً وما قِيل الناس أيضاً، وجئنا لبدر قبل غروب الشمس بقليل، ونزلنا على طرف البركة التي هناك، ولم يتيسر للناس إخراج خزينتهم في تلك الليلة، فلما أصبحوا أخذ الناس في رفع أزوادهم المدخرة هناك، ووجدوا ببدر رطباً كثيراً بأرخص قيمة، وأخذوا منه ما اشتهوا. ولما لم يرتحل الركب صبحاً ظنوا أنهم لايرحلون إلى آخر النهار، ويبرد الهواء، وبينما هم في اشتغالهم قبل الظهر بقليل في أشد ما يكون من الحر، إذ ضرب شيخ أهل تونس طبله، وارتحل الناس بلا مشورة، واشتد الحر عليهم ما بين تلك الجبال، ولم يصلوا إلى الصفراء حتى وقع الموت في الإبل والناس، فأتت ناس وإبل كثيرة من شدة الحر. وكان من لطف الله بنا أننا لما اشتد الحر عدلنا إلى قهاوي على يسار الطريق وأنحنا إبلنا خارجها، ودخلناها وجلسنا فيها ساعة حتى استرحنا واستراحت الإبل، وصلينا الظهر والعصر، ثم سرنا آخر الناس كلهم فلم يضع لنا جمل ولا رجل في ذلك اليوم. وبتنا بعدما جزنا الصفراء بساعة عند مفترق الطرق التي تذهب إلى الينبع والتي تذهب إلى جديدة<sup>(٢)</sup>.

### بئر الملاء نافع :

وذكر وهو عائد من المدينة إلى مكة مروره ببئر تدعى (بئر الملاء نافع)، وسيأتي ذكره عند ذكر العلماء الذين اجتمع بهم في المدينة. قال : ثم إلى مسيطرة<sup>(٣)</sup> (؟) ثم خرجنا منها، وعدلنا يمينا، عن طريق الركب المعهودة، وتركنا

(١) : «العياشية» ١ / ٢٣٠.

(٢) : «العياشية» ١ / ٢٣٠.

(٣) هي (مستورة).

المسافة المسماة بالبزوة يساراً، ودخلنا بين تلول وكثبان ورمل عظيم، ونزلنا بئر الملا نافع قرب الصباح، بعدما غلبت الإبل، وهذه البئر تنسب إلى أحد الفقهاء الحنفية المستوطنين بالمدينة، وقد تقدم ذكره — وهو الذي حفرها بماله، ونفع الله بها العباد، لأنها في مكان منقطع بين رمال كثيرة، وكان صاحبها الذي تنسب إليه حاضراً معنا في القافلة لأنه حج في هذه السنة.

وهذه الطريق لا يسلكها إلا القوافل لكثرة رمالها، وإنما سلكوها لأنها أنحصر من الأخرى بيوم فإنها تأخذ عن يمين بدر إلى أن تنزل بالصفراء ثم ارتحلنا من هناك ونزلنا الصفراء وسط الليل<sup>(١)</sup>.

الجديدة : قال : ثم ارتحلنا — من مفترق الطرق — وجئنا الجديدة وقت الغداء، واشتد الحر، ونزل الناس بها لحزن أموالهم وأحلامهم، وما يفضل من زاد وعلف، إلى أن يرجعوا من المدينة، وتلك عادة الركب المغربي والمصري، بل غالب المصريين يبعثون أحلامهم وأثقالهم من بدر إلى الينبع مع الأعراب والفلاحين الذين لا غرض لهم في الزيارة، إذ لا قصد لهم إلا في الكراء. وليس في بلاد الحجاز مكان أشد حرّاً من هذه الخيوف فيما علمنا.

وقال في موضع آخر من رحلته<sup>(٢)</sup> : (وقد رأيت جماعة بالصفراء يصلون في مسجد لهم، فلم أر أحداً منهم يرفع يديه في تكبيرة الإحرام بل يفتتحون الصلاة بالقراءة سادلين أيديهم، فعلمت أنهم روافض وهم غالب أهل تلك القرى).

وقال في موضع آخر : ووجدنا هناك بركة عظيمة مجدية، بناها أمير الحاج الشامي، ذات ماء غزير، قد صنعت وراءنا وما كنا رأيناها قبل ذلك، أعانت الناس في سقي الإبل وملاء القرب، ولولا هي لأفناهم وإبلهم العطش، لأن ماء القرية التي ينزل بها الحاج وجدناه قد غار، ورجع الناس إلى البركة فسقوا واستقوا، وعزموا على الرحيل، ثم بدا لهم في المبيت لكثرة الموتى والمرضى، ترى الرجل يمشي في حوائجه فتغيب عنه ساعة، ثم يقال لك قد مات، وذلك — والله أعلم — من شدة الحر وكثرة شرب الماء مع التعب المفرط، فتنفطر قلوبهم..

(١) : «العياشية» ٢ / ٢٨٦.

(٢) : ١ / ٢٩٣.

وفي هذه القرية مسجد جامع ببناء متقن، تجرى العين من تحته من بناء الأمير رضوان — رحمه الله — وكم له في طريق الحج من مآثر ومعالم تدلُّ على عُلُوِّ همته (١) .

### النازية :

(ثم ارتحلنا من جديدة وجئنا وقت الغداء للنازية، ووجدنا بأولها سبيلاً فيه ماء) (٢) .

### عرق الظبية :

(وجئنا لمسجد الغزالة، وهو من المساجد التي صلى فيها النبي صلى الله عليه وسلم، وهو المسمى عند المؤرخين بمسجد عرق الظبية، وأناخ الناس فيه حتى أفطروا، ثم سرنا صاعدين مع الوادي حتى أتينا بئر الروحاء) (٣) .

**الروحاء :** (ثم سرنا — من مسجد الغزالة — صاعدين في الوادي حتى أتينا بئر الروحاء قبل الظهر، وأنحنا فيه ساعة واستقينا منه ماء قليلاً، لأن بئر طويل، وماؤه ضنين، وهو حلؤ، وحوله بركة عظيمة قد تعطلت، وبقرها مسجد وثيق البناء صحيح، ولو قيض الله لذلك الموضع من يعمره لكانت فيه أي إعانة للحجاج، ولكن الله يفعل ما يريد.

وقد ذكر السيد السهودي قريباً من البئر مسجداً من مساجده صلى الله عليه وسلم ولا أدري هل هو المبني الآن أو غيره، وقد تأملت فيما قرُب من البئر فلم أر أثر مسجد غير هذا) (٤) .

### شرف الروحاء : قبور الشهداء :

ثم سرنا منه — بئر الروحاء — واشتد الحر، وجعلت الإبل تدخل في الشجر وتطلب الظل، وتمتنع من المشي ولو ضُربت فيسير الناس ساعة ثم يقفون، ومات

(١) : «العياشية» ١ / ٢٣٠ .

(٢) : «العياشية» ١ / ٢٣١ .

(٣) : «العياشية» ١ / ٢٣١ .

(٤) : «العياشية» ١ / ٢٣١ .

أناس آخرون، ولم نزل حتى قربنا من شرف الروحاء، وهو المكان المسمى الآن بقبور الشهداء، قبل العشاء بقليل. ولما قرب الفجر مرّت بنا قافلة أهل المدينة التي جاءت من مكة، وهم يسيرون ليلاً<sup>(١)</sup>.

ثم ارتحلنا بعد طلوع الفجر — من شرف الروحاء — وجئنا لقبور الشهداء، عند طلوع الشمس، وقد ذكر بعض الناس أن الشهداء الذين سمي بهم المكان قوم قتلوا هناك ظلماً، وقد ذكر السهودي مسجداً من مساجده صلى الله عليه وسلم بشرف الروحاء، وهناك مكان محوط بحجارة شبه مسجد، يزوره الناس، وأظنه هو.

وفي شرف الروحاء آثار آبار معظلة، وبنيان دائر، وقد كانت هناك في القديم قرية ولم يَثُدَّ الآن بها شيء من ذلك.

وقد وجدنا هناك سبيلاً آخر مبنياً، تجدد وراءنا فيه ماء، وحوله ناس من الأعراب يبيعون الماء والعلف، وأخبرنا أن وراء الجبل بلد خال، فيه آبار وبعض نخيل. وأظنها السّقيّا<sup>(٢)</sup>، فإنها قريب من شرف الروحاء<sup>(٣)</sup>.

الفريش: (فلما جاوزنا شرف الروحاء وجدنا قافلة المدينة التي مرّت بنا ليلاً نزلت أمامنا، وتجاوزناهم حتى جئنا الموضع المسمى بالفريش<sup>(٤)</sup> فأناخ الناس حتى أظفروا، وساروا في يوم حارّ عازمين دخول المدينة المشرفة في ذلك اليوم، ولم يعبأ الناس ولا يلبهم بما لقوا من شدة الحر في ذلك اليوم لشدة الفرح)<sup>(٥)</sup>.

مُفَرِّح: قال<sup>(٦)</sup>: (وأول مكان تُرى منه قباها وأسوارها، وتشاهد منه بالبصر والبصيرة أنوارها، الجبل المسمى بمفرح، فتسارع الناس عند الدنو منه لصعوده...

---

(١) : «العياشية» ٢٣١.

(٢) : «العياشية» ١ / ٢٣١.

(٣) : السّقيّا هي أم البرك وليست هذه التي ذكر. بل تقع على الطريق المتجه من المنصرف —

المسجد شرقاً إلى مكة وتعرف السّقيّا الآن باسم أم البرك

(٤) : في الأصل (بالفريش) تصحيف.

(٥) : «العياشية» ١ / ٢٣٢.

(٦) : ١ / ٢٣٣.

ثم أورد قصيدة له طويلة منها :

هذا مفترج كاسمه وكأنه  
ياقوتة رشت بذائب عُنْبَر

وأمامه البیداء يسطع نورها  
لبصائر الزوّار هل من مبصر؟

وعلى يمينك قد بدا (عين) يرى  
بالقرب كالشور العقير الأعفر  
وأنخ ركابك بـ (المعرّس) إنه  
لمبارك، ومائه فتظّهّر

واحد الركاب مع (العقيق) منعماً  
عينيك في ذاك المكان النير

يا حبّذا (أحد) نراه يحبّنا  
ونحبّه، جبل جيل المنظر

فكأنما هو حلة من عسجد  
صبغت جوانبها بمسك أذفر

— إلى أن قال —: ولما تجاوزنا مُفَرَّح بغلوة أو غلوتين وصلنا إلى منتهى أبعد  
الحرمين، وهو حرم الشجر الذي هو بريد في بريد، وحده طرف البیداء<sup>(١)</sup> ...  
وجئنا وقت العصر إلى ذي الحليفة.

---

(١) : ١ / ٢٣٣ / ٢٣٤ / ٢٣٥.

في المدينة المشرفة



## في المدينة المشرفة :

في المدينة المشرفة : كانت مدة إقامتنا بالمدينة المشرفة سبعة أشهر ونصف، لأننا دخلناها في الليلة الثانية من محرم (١٠٧٣هـ)، وكان خروجنا منها إلى مكة في السابع عشر من شعبان.

(كان دخولنا للمدينة المشرفة ليلة الخميس الثانية من المحرم فاتح عام ثلاثة وسبعين وألف، وبتنا تلك الليلة برباط سيدنا إسماعيل بن جعفر الصادق، فتنا مَنْ زار ومنا من تأخر إلى الصباح، لأن الحرم الشريف بعد صلاة العشاء يغلق ولا يفتح إلا قرب الفجر)<sup>(١)</sup>.

وكنا نسكن أولاً في محل نزولنا بجوار مشهد السيد إسماعيل كما تقدم. وكان أفسح الأمكنة وأوسعها، وأبعدها عن زحام الناس، به أخلية للوضوء، وبثران.

وكان قَيِّمُ المشهد أحد أصحابنا المغاربة المجاورين، وهو الذي أنزلنا به، وكان يتولَّى إصباحه وكنسه وإغلاق أبوابه، ويقبض مايؤتى به من الصدقة إليه، ولأه ذلك مفتي المالكية بالمدينة، صاحبنا الخطيب أحمد، وأخوه الخطيب عبدالرحمن، لأنَّ ولاية المشهد لهما، فإذا اجتمع من الصدقات ماله بال، دفع لهما حصَّةً منه وانتفع بالباقي، كما هو شأن سائر المشاهد بالمدينة بل وبغيرها، صارت أماكن جباية يولَّى عليها من قبل القاضي.

وكنا مدة نزولنا به في أرغد عيش وألذَّة، لا يُزاحنا فيه غيرنا، لولا بعدنا من المسجد، فكنا إذا خرجنا لصلاة الظهر في أيام الحر تكاد الرمضاء تحرقنا، إنما نتقياً ببقايا الظلال ومبادي الفياء تحت الجدران، ومع ذلك يلفحنا الحرُّ لفتحاً فلا نصل إلى المسجد إلا بعد مشقة. ولكننا نحسب في ذلك خطانا ونغفر ذلك لما اغتبطنا به من السعة وجوار أهل البقيع...

---

(١) : ٢٣٥/١

وما كان ينغص علينا فيه إلا كثرة النخالة إلى ذلك المحل وهم (...). الساكنون خارج المدينة في العوالي وغيرها من الجهات، فإن جلّ من يسكن هناك ويتولى العمل في البساتين والفلاحة فيها (...). ويسميه أهل المدينة النخالة، ولا أدري ما معنى هذا الاسم. ولم نزل ساكنين في المشهد المذكور إلى أواسط ربيع الأول، ومرضت فيه بالحمى الصفراوية، ومرض الجللّ من أصحابنا وضعفنا عن الوصول إلى المسجد من المرض، وكان ابتداء مرضي ليلة المولد الشريف، وكان الناس يسمون ذلك المحل الذي سكنا فيه — مع كونه أفسح المحال — بشقل السكنى وكثرة الأمراض، ولذلك شاهد، فإن هذا المحل قريب من ذنب مَشِيط، الذي قال فيه صلى الله عليه وسلم «اللهم حبب إلينا المدينة وانقل وباءها إلى مَهَيمة وما بقي منه فاجعله تحت ذنب مشعط». وقال أيضاً : إن كان الوباء في شيء من المدينة فهو في ظل مَشِيط.

قال السيد : ومَشِيط بالشين المعجمة كمرفق أطم لبني جذيمة كان في غربي مسجدهم قرب البقيع. وقال في موضع آخر : كان غربي مسجد أبيّ، ومسجد أبيّ قريب من مشهد العباس<sup>(١)</sup>.

وقد تحدث العياشي عن الزيارة، وعن وصف الحرم الشريف، والروضة المقدسة، والقبور الكريمة، ووصف ما في المدينة من مساجد وآثار، وعوّل على السيد السمهودي — مؤرخ المدينة — فنقل عنه، وأكثر النقل، وما أضافه يميزه بقوله : (قلت) أو (وهذا لم يذكره السيد). ولم أنقل ما ذكر عن السمهودي لأن كتابيه معروفان «وفاء الوفاء» و«خلاصة الوفاء».

في الحرم الشريف : قال<sup>(٢)</sup> : (ولما كان يوم الثلاثاء سابع الشهر محرم — ارتحل الركب المصري من المدينة بعد إقامة ثلاثة أيام بها، وكان الحرم الشريف في أيام إقامتهم لا تكاد تسمع فيه صوت قارئ ولا مؤذن، لكثرة اللغط والصخب ورفع الأصوات، وازدحام الناس في المسجد، لا ينقطع ذلك ليلاً ولا نهراً لأن أبواب الحرم لا تغلق ما داموا هناك، ويكثرون بالليل إيقاد الشموع في

(١) : ٢٧٤/١

(٢) : ٢٤٣/١ ٢٤٤

المسجد، وتجتمع إليهم صبيان أهل المدينة يقرأون لهم موالد وقصائد في مدح النبي صلى الله عليه وسلم وهم محذقون بهم، ويسمون ذلك مولد النبي صلى الله عليه وسلم، يستعدون له من بلادهم بالشمع والحلواء، ويدفعون للصبيان أجرة على ذلك، ويقع على أرض الحرم من الشمع المذاب شيء كثير لأجل ذلك، فيلتقطونه ويجمعونه، ويرجعون به إلى بلادهم تبركاً به، فتجد منهم في المسجد بالليل جماعات كثيرة على هذا النمط، فيكثر لذلك الصباح في المسجد واللغط الذي لا ينبغي. لاسيما ما يضاف إلى ذلك من ولالول النساء، وبكاء الأطفال واختلاط النساء بالرجال، وبالجملة فعوام المصريين من أبعد الغوغاء من إصابة الصواب، لولا أن بحر رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تكذره الدلاء لكانوا جديرين بالوقت، بسبب ما يحصل منهم من سوء الأدب وسيء الأقدار في الحرم الشريف..

حكى لي بعض المجاورين أنه وُجِدَ في بعض المواسم رجل مع امرأة في الحرم الشريف، فحملاً إلى الحاكم، فشهدت البينة أنها زوجته، وقيل له : ما حلك على ما فعلت؟. فقال : إنه لا وَلَدَ لنا، فرجوت أن تحمل المرأة ببركة هذا الحرم، فعذر بجهله، ولم يعاقب<sup>(١)</sup>.

وقال عن فرش الحرم الشريف : (ولما استهل ربيع النبوي نظف الحرم الشريف، وفرش بفرشه المعهودة من الزرابي المبتوثة الحسان، التي لا يوجد لها نظير إلا في بيوت الملوك، وغالبها يأتي من أرض الهند، من ملوكها، وقد رأيت سُدى بعضها حريراً خالصاً، وكنت أتوقى الصلاة فيها، وطعمها من جيد الصوف)<sup>(٢)</sup>.

وقال : (وكانت عادة المصريين ليلة رحيلهم من المدينة أن يجتمع أمراؤهم وكبراء أهل المدينة والأغوات في صحن المسجد ليلاً، ويوقد شمع كثير، على حَسَكٍ كبير من فضة وُشِّيتْ بذهب، ويحضر جماعة من المنشدين ينشدون قصائد في مدحه صلى الله عليه وسلم، وينثر عليهم من اللوز والسكر والأزهار وأنواع

(١) : ١ / ٢٤٤ / ٢٢١ : ١ / ٢٨٤.

(٢) يقصد لحمها - أي ظاهرها -.

الخلوى ويدرار عليهم بالأشربة اللذيذة إلى أن يمضي هزيع من الليل، وهذه عادة أمرائهم وأمراء الشاميين في ليلة الرحيل، ولم يفعل المصريون شيئاً في هذه السنة، لما وقع من الاختلاف والعزل بين أمرائهم — كما تقدم<sup>(١)</sup> .

### مساجد المدينة وأثارها :

**البقيع** — مقبرة المدينة — قال : ( فأول ما يلقاك من المشاهد إذا خرجت على باب المدينة المسمى بباب البقيع، قبة فيها صفية بنت عبدالمطلب، على يسارك وأنت ذاهب في الزقاق الذي في وسط البقيع إلى ناحية المشرق... وإن ملت إلى اليمين مع سور المدينة، فهناك مسجد صغير قيل إن فيه موقف النبي صلى الله عليه وسلم حين خرج يستغفر لأهل البقيع، وقيل : هو زاوية دار عقيل بن أبي طالب التي دفن فيها، وفيها دفن كثير من أهل البيت<sup>(٢)</sup> .

وسرد ما في البقيع من المشاهد المعروفة في عهده :

### مساجد المدينة :

وتتبع مساجد المدينة مسجداً مسجداً فوصفها مُعَوِّلاً على مؤرخ المدينة السهمودي، ومن تلك المساجد :

**مسجد قبا** : قال بعد أن وصفه : وفي خارج المسجد من ناحيته الغربية رباط كبير مليح، مبني بالحجارة المنحوتة، فيه بيوت كثيرة يسكنها الغرباء، وله أوقاف، وُتَقَدِّمُهُمُ القيم بأمر الرباط صاحبنا الشيخ صالح بن أحمد اليمني المصري<sup>(٣)</sup> .

---

(١) ذكر (ص ٢٣٦ ج ١) : وكانوا — يعني المغاربة — تخوفوا إزعاج المصري إياهم عن الإقامة، هو شأنه في غالب السنين، فلا يقيمون إلا يوماً واحداً، وفي هذه السنة أشغلهم عن ذلك ما وقع منهم من الاختلاف، فقد جاءت كتب من مصر بعزل الأمير إبراهيم، وتولية أبي الشوارب مكانه. وأبى المعزول أن ينقاد لحكم العزل حتى كادت أن تكون فتنة ولكن الله سلم، فاستسلم للأمر وسلم المحلل للأمير عبدان، وكان حج معه. وأقام هو بالمدينة إلى أن توفي بها بعد شهر أو يزيد.

(٢) : ١ / ٢٤٤.

(٣) : ١ / ٢٤٨.

**مسجد الجمعة :** قال عنه : (وهو في طريق قبا على نحو ميل أو أقل من مسجد قبا عن يمين الذهاب من المدينة إليها، على الطريق التي تمر بين النخل، ومنْ مرَّ على طريق الحرّة الغربية فهو على يساره. فقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم لما خرج من قبا في هجرته أدركته الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن الوادي، وهي أول جمعة صلاها صلى الله عليه وسلم بالمدينة. وهذا المسجد اليوم في منخفض من الأرض أحاطت به حدائق النخل من أكثر جهاته.

وفي شماله أطلّم خراب قيل إنه محل عتبان بن مالك، وفيه أثر مسجد صغير غير مسقف، يقال : إنه المكان الذي صلى به النبي صلى الله عليه وسلم من بيته.

ومسجد الجمعة في مستبطن الوادي الذي يحول بينه وبين قومه إذا سال، ومنازل قومه في غربي الوادي على طرف الحرّة<sup>(١)</sup> .

**مسجد الفضيح :** وهو مسجد صغير شرقي مسجد قبا على شفير الوادي على نشز من الأرض مرضوم بحجارة سود....

ويعرف الآن بمسجد الشمس. قال السيد : ولا أعلم سبب هذه التسمية<sup>(٢)</sup> .

**مسجد بني قريظة :** قرب حرثهم الشرقية على باب حديقة هناك، وعنده خراب أبيات شمالي الحديقة من دور بني قريظة، وأطم الزبير بن باطيا القرظي داخل في هذا المسجد... وهذا المسجد كبير عليه حظيرة من حجارة قريب من القامة. وفي زاويته الغربية الشمالية دكة كبيرة هي موضع منار المسجد قبل انهدامه<sup>(٣)</sup> .

---

(١) : ١ / ٢٤٨.

(٢) : ١ / ٢٤٨ ويعني بالسيد: السهودي.

(٣) : ١ / ٢٤٨.

**مسجد مشربة أم إبراهيم :** وهذا المسجد شمالي مسجد بني قريظة قريب من الحرة الشرقية<sup>(١)</sup> .

**مسجد بني ظفر :** شرقي البقيع بطرف الحرة الشرقية، ويعرف اليوم بمسجد البغلة...

وعند هذا المسجد آثار في الحرة من جهة القبلة، يقال إنها أثر حافر بغلته صلى الله عليه وسلم، وهناك أيضاً أثر على حجر كأنه أثر مرفق، يُذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم اتكأ عليه، ووضع مرفقه الشريف عليه، وعلى حجر آخر أصابع. والناس يتبركون بها<sup>(٢)</sup> .

**مسجد الإجابة :** وهو لبني معاوية بن مالك من الأوس، وهو شمالي البقيع قريب منه على يسار السالك إلى العريض، بإزائه تلؤل هي آثار قرية بني معاوية<sup>(٣)</sup> .

**مساجد الفتح :** الأول المرتفع على قطعة من جبل سلع في المغرب، يصعد إليه بأدراج شمالية وشرقية، هو المراد بمسجد الفتح عند الإطلاق، ويقال له أيضاً: مسجد الأحزاب والمسجد الأعلى..

وأما المساجد التي في قبلته، فقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى في مسجد الفتح الذي على الجبل وفي المساجد التي حوله. ثم نقل كلام السهمودي ونصه : وهو ظاهر ثلاثة مساجد :

فأحدها : الذي يلي المسجد الأعلى يعرف بمسجد سلمان الفارسي.

وثانيها : يلي قبلة هذا المسجد، يعرف بمسجد علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

---

(١) : ٢٤٩/ ١ .

(٢) : ٢٤٩/ ١ .

(٣) : ٢٥٠/ ١ .

وثالثها : في قبة الثاني على طرف جبل سلع، جانحاً لجهة المشرق، ويعرف بمسجد أبي بكر، وهو أصغرهما. في باب المعروف منها بعليّ مَاجِلٌ ينزل إليه بدرج.

وأهل المدينة يخرجون إلى هذه المساجد لقصد التفرج، في أيام كثيرة، ولهم يوم معروف في السنة يخرجون إليها بالأخبية والأطعمة الكثيرة، فيبيتون بها في لهو وطرب، وهو يوم النصف من شعبان.

**مسجد القبليتين :** (غربي بطحان وسلع، قريب من العقيق في مكان مرتفع، والطريق إليه في آكام سود من الحرة وشعاب... وعليه بناء وثيق. وليس بقربه شيء من العمارة، وقريب منه حديقة فيها بئر ماء. وأرض تزرع<sup>(١)</sup> .

**مسجد السقيا :** (على يسار الذهاب إلى المدينة من العقيق في الحرة الغربية على طريق الحاج عندما يقرب من المساكن، ويشرف على المدينة...

قال : وهو اليوم مبني ببناء وثيق، يأوي إليه الغرباء في بعض الأحيان خصوصاً أيام الموسم، فإن الركب المصري ربما وصلوا بالنزول في بعض السنين إلى تلك الناحية<sup>(٢)</sup> .

**مسجد ذياب :** ويعرف اليوم بمسجد الراية، وهو على جبل صغير قريب من سلع من شرقيّه قريب من ثنية الوداع، على يسار الداخل إلى المدينة من طريق الشام.

---

(١) : ٢٥٢/ ١

(٢) : ٢٥٢/ ١

## كهف سلع، وشعب بني حرام :

(قال السيد بعد إيراد حديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس في كهف سلع، وكان يبسيت به ليالي الخندق، وأن معاذ بن جبل خرج يطلب الرسول صلى الله عليه وسلم فدلَّ عليه في جبل ثواب، فخرج حتى رقى جبل ثواب — قال : — فبصرته في الكهف الذي اتخذ الناس إليه طريقاً إلى مسجد الفتح فإذا هو ساجد — الحديث — قال السيد : جبل ثواب لم أقف له على ذكر، لكن صفة هذا الكهف بما ذكر ظاهرٌ في إرادة الكهف المذكور بسلع على يمين المتوجه من المدينة إلى مساجد الفتح من الطريق القبلية، بقرب شعب بني حرام فإن عن يمينه هناك مجرى سائلة تسيل من سلع إلى بطحان، فإذا دخلها صعد يسيراً في المشرق كان الكهف عن يمينه، وأعلى منه في المشرق كهف آخر لكنه صغير جداً، فالأول هو المراد، وإذا توجه من هذه السائلة طالب مساجد الفتح، كان شعب بني حرام على يمينه، وهو شعب متسع فيه آثار مساكنهم، وأثر مسجدهم الكبير...

قلت : وأثر المسجد اليوم باق بأسفل الوادي إلا أنه لا بناء عليه. وإنما عليه حظير صغير، وهو لا يعرفه كثير من الناس، ولا يُؤبَّه به، وكذا الغار<sup>(١)</sup>.

مصلى الأعياد : (المشهور منها الآن ثلاثة، كلها غربي المدينة خارج باب المصري بين الموضع المعروف بالمناحة وبطحان)<sup>(٢)</sup>.

المشهد (قبر حمزة) : (والمشهد عليه قبة عالية متقنة<sup>(٣)</sup>)، وبابه مصفح بالحديد، وحوله بناء متسع فيه بئر، وفيه أخلية للوضوء متصلة بالسطح. قال السيد : والقبر الذي عند رجلي حمزة والذي بالصحن ليسا من قبور الشهداء، وفي خارج المشهد بئر أخرى كبيرة، وبازائها صفة مسجد، وتحت ما جل ماء يهبط إليه بدرج، وباب

(١) : ١ / ٢٥١ و ٢٥٢.

(٢) : ١ / ٢٧٣.

(٣) : البناء على القبور محرم شرعاً، والحمد لله الذي طهر هذه البقاع المباركة مما لا يبيحه الشرع الشريف.

المسجد في سائر الأيام مقفل لايفتح إلا يوم الخميس، يأتي القيم من المدينة بالقصد لذلك<sup>(١)</sup>.

المهراس : وفي أصل الجبل — أحد — غار يزعمون أن النبي صلى الله عليه وسلم اختفى فيه، ولايصح ذلك، ففي «مسند أحمد» عن ابن عباس رضى الله عنها : وجال المسلمون جولة نحو الجبل، ولم يبلغوا حيث يقول الناس الغار، وإنما كان تحت المهراس. هـ.

وفي أعلى الشعب عند مضيقه من حيث يشرع للصعود للجبل الموضع المسمى بالمهراس، وهي مواضع منقورة في الجبل بين صخور عظيمة، يجتمع فيها المطر، قلّ ما تخلو منه... وفيه غسل جرحه صلى الله عليه وسلم يوم أحد، كما في «الصحيح».

مسجد الفسح<sup>(٢)</sup> ومسجد الثنية : وهو المسجد اللاصق بأحد على يمينك وأنت ذاهب في الشعب للمهراس، وهو صغير منهدم...

قلت : وبين هذا المسجد وبين مشهد حمزة في البيداء التي هناك مسجد صغير مبني بالحجارة المنحوتة مرتفع، عن الأرض أقل من قامة يصعد إليه بدرج، غير مسقف ولا مرتفع الحيطان يقال له مسجد الثنية، واحدة ثنايا الإنسان يقال : إن فيه كسرت رباعية النبي صلى الله عليه وسلم.

مسجد ركن جبل عينين الشرقي : على قطعة من الجبل، والجبل في قبلة مشهد سيدنا حمزة.

مسجد الوادي : على شفيره شامي جبل عينين، قريب من مسجد ركن جبل عينين، يقال إنه مصرع حمزة رضي الله عنه، وأنه مشى بطعنته من الموضع الأول إلى هذا فصرع.

---

(١) : ٢٥٤/١.

(٢) : نقل عن السهودي أن الناس يقولون : إن فيه نزلت (ياأيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس) الآية.

مسجد طريق السابلة : وهو الطريق اليمنى الشرقية إلى مشهد حمزة رضي الله عنه (١) .

مسجد في طريق أحد : وفي الطريق إلى أحد أيضاً عند آخر النخيل مسجد صغير محوط عليه بأحجار، يقال إن النبي صلى الله عليه وسلم جلس فيه للاستراحة بعد الرجوع من أحد، ولم يذكره السيد — رحمه الله — (٢) .

## المياه في المحينة المنورة



## المياه في المدينة المنورة

### العين الزرقاء :

وتحدث العياشي عن عين المدينة بما ملخصه : (وقد جعل ماء بئر أريس نفق من أسفلها على وجه الماء، حتى يتصل مأوها بالبئر التي يقال لها العين الزرقاء، وهي في حديقة أخرى قريبة من بئر أريس، وهي بئر كبيرة قد أمّدت بمياه آبار متعددة منها بئر أريس. فصارت متبحرة، يشخب فيها ميزابان عظيمان من مياه غيرها من الآبار. فاتخذت لها أسراب تحت الأرض إلى أن خرجت إلى بطحان، ثم إلى غربي المدينة، فقسمت جداول، فأدخل منها إلى المدينة ما احتيج إليه، فأظهرت داخل المدينة مناهل متعددة، وبني لها بناء متقن، يهبط إليها في نحو ثلاثين درجة محكمة البناء، متقنة الوصف، واسعة المشى، منها يستقي أهل المدينة كلهم لشربهم.

والذي رأيت منها ثلاثة مواضع : أحدها شرقي المسجد بينه وبين باب البقيع، في المكان المسمى الآن الحرة.

والآخر : شامي المسجد بعيداً منه إلى ناحية باب الشامي.

والآخر : خارج باب السلام في الناحية الغربية عند سوق المدينة بالبلاط.

وأما خارج المدينة فأخرجت في محال متعددة أيضاً، ثم لم تنزل تقرب من وجه الأرض قليلاً كلما انحدرت في أرض المدينة، إلى أن خرجت على وجه الأرض قريباً من الغابة، شرقي مسجد رومة، بينه وبين أحد. وعليها هناك المزارع، وقد رأيت جدولاً منها قريباً من مسجد الراية في طرف ذباب يهبط إليه في نحو ثلاث درج.

وهذه العين المباركة من أغزر العيون وأحلاها ماءً، وألذّه، بها جلُّ انتفاع أهل المدينة، ومنها كل السبيلات الموقوفة بالمدينة. ومنها تملأ الدوايق التي توضع

في الحرم للشرب، وهي لا تكاد تحصى كثرة، فما أعظم بركتها وأوسع نفعها<sup>(١)</sup> ولقد شاهدت من يستشفى بمائها، وقد حملنا بعض مائها للاستشفاء، والله در القائل :

لئن قبل في زرق العيون شامة  
فعندي أن اليمن في عينها الزرقا

وتسميتها بالعين الزرقاء من لحن العامة، وصوابه عين الأزرق، لأن مروان الذي أجراها لمعاوية كان أزرق العينين، فلقلب بالأزرق، وكان إجراؤه لهذه العين بأمر معاوية لماً ولآه المدينة — وأطال الحديث حولها.

بئر البصة : (بضم الموحدة وتخفيف الصاد المهملة كما هو الدائر على ألسنة أهل البلد.

وهذه البئر قريبة من البقيع على طريق قبا، في حديقة نخل على طريق بطحان، وماؤها أخضر.

وهناك بئر أخرى صغيرة.... ورجح السيد أنها الصغرى.. وقد ابتنى بقرب الصغرى مسجد واتخذ لها درج ينزل بها إليها، وقد شربنا من مائها مراراً<sup>(٢)</sup> .

بئر زمزم : وهي قرية من السقيا على يمين الطريق، حتى زعم بعضهم أنها بئر السقيا، وهي بئر مليحة، في حديقة نخل، حولها بركة وبناء.

وسميت زمزم تشبيهاً بزمزم في التبرك بها ونقل مائها للآفاق، وقد زرتها والحمد لله، وكانت إذ ذاك ملكاً لبعض أصحابنا من المغاربة المجاورين، فأطعمنا من تمر حديقتها وسقانا من مائها.

وقال في موضع آخر : هي إحدى الآبار المنسوبة للنبي صلى الله عليه

---

(١) : ٢٦٥/ ١

(٢) : ٢٦٧/ ١

وسلم، واشتهرت بزمزم تشبيهاً لها بزمزم المكية لبركتها واستشفاء الناس بها، وهي في غربي المدينة مما يلي الحرة، وماؤها عذب (١) ...

بئر السقيا : والسقيا في آخر منزلة النقا على يسار السالك إلى بئر علي، وهي بالحرّة الغربية، وحولها بركة عظيمة لورود الحاج أيام نزولهم هناك (٢) .

بئر اليسيرة : (— من اليُسْر ضدّ العسر — وتعرف الآن ببئر العهن، بكسر فسكون.

وهي معروفة في عوالي مليحة جداً، منقورة في الجبل، وعندها سدره...

وقد زرتها وهي في عوالي المدينة قريب من مسجد بني قريظة، وعلى بابها حديقة كبيرة حسنة، ملك لبعض المغاربة (٣) .

بئر عُرس : (— بضمّ فسكون.. بئر شرقي قُبَا على نصف ميل من مسجدتها إلى جهة الشمال، وقد جُعِل لها درج ينزل إليها منها، وحولها حديقة، وبجانها مسجد، وقد زرتها) (٤) .

بئر رومة : وهي بأسفل العقيق قرب مجتمع الأسيال، ولم أزر هذه البئر إلا مرة واحدة لبعدها، والطريق إليها على مساجد الفتح. ثم يعدل يساراً إلى ناحية مسجد القبيلتين، ثم يمر تحتة أسفل منه قاصداً العقيق فهي هناك، وبقرها مزارع (٥) .

بئر حاء : (وهي اليوم في حديقة صغيرة من سور المدينة (؟) شماليه، بينها الطريق، وأقرب أبواب المدينة إليها باب البقيع، وهي بينه وبين باب الشامي) (٦) .

---

(١) : ١ / ٢٦٩ و ٢ / ٢٨٨.

(٢) : ١ / ٢٦٩.

(٣) : ١ / ٢٦٩.

(٤) : ١ / ٢٦٩.

(٥) : ١ / ٢٦٨.

(٦) : ١ / ٢٦٨.

**بئر بضاعة :** بضم الموحدة على المشهور، وهي في حديقة كبيرة ذات نخل، أقرب أبواب المدينة إليها باب الشامي، غربي الخارج منه قليلاً، وحوها مسجد وبركة ماء<sup>(١)</sup>.

**بئر أريس :** هذه البئر في حديقة غربي مسجد قبا قريب، وماؤها غزير، يسنى منه إلى بركة في الحديقة. وفي هذه الحديقة أنواع من الفواكه والأشجار وها عنب كثير.

وأهل المدينة يقصدون هذه الحديقة للقائلة فيها والتفرج، وقد جعل لمائها نفقا من أسفلها على وجه الماء حتى يتصل ماؤها بالبئر التي يقال لها العين الزرقاء<sup>(٢)</sup>.

ماء آبار المدينة، قال : (كان في رباط الشيخ عبدالقادر الجيلاني بقرب باب النساء بينه وبينه ثلاث خطوات، بئر حلو على خلاف المعتاد من آبار المدينة، فإنها مالحه، فبينما أنا أتحدث مع نقيب الرباط : متى جرى ذلك؟ فقال لي : إنما حدثت فيها الحلاوة منذ أعوام قريبة، وكانت كغيرها من الآبار فأصبحت ذات ليلة وهي حلوة ولا يعلمون السبب في ذلك، فقلت له : لعل مجرى العين قد انخرق فيها؟ فقال : ليس بالقرب منها مجرى للعين. والله أعلم بحقيقة ذلك)<sup>(٣)</sup>.

---

(١) : ١ / ٢٦٧.

(٢) : ١ / ٢٦٥.

(٣) : ١ / ٢٧٦.

**أهل المدينة كما وصفهم العياشي**



## أهل المدينة كما وصفهم العياشي

أطال الرحالة العياشي الإقامة في المدينة في زيارته هذه. فقد دخلها في الليلة الثانية من شهر المحرم (١٠٧٤هـ)، وخرج منها إلى مكة في السابع عشر من شعبان من تلك السنة<sup>(١)</sup>. ولهذا فقد تحدث عن آثار المدينة وعن أهلها باستغاضة. وأحاديثه شائعة وممتعة، يحسن إيرادها بنصها.

قال: (وأهل المدينة — زادهم الله خيراً وأوسع عليهم — أهل رفاية وتوسع في المعيشة في زماننا هذا، وتغال في الملابس الفاخرة، وتزوّوا بزي الأعاجم في مآكلهم ومشارهم وملابسهم، لكثرة سكنى الأعاجم بها، فإن بها طائفة كبيرة من عسكر الترك زاعمين أنهم مُعَدُّون لحراستها، وفي الحقيقة إنما يأكلون مال السلطان في غير شيء، فلا يغيثون ملهوفاً ولا يروعون ظالماً. وبها من الأعاجم أقوام كثيرون من الأكراد والترك وأطراف الشام، يشترون الحصص والجامكية، فيجلسون بالمدينة ويرتزقون بما يأتيهم من ذلك على حالهم التي كانوا عليها في بلادهم من التوسعة، فاقتدى بهم غالب أهل المدينة من أقويانها.

وقد كانت المدينة في الزمان المتقدم معروفة بالقناعة حتى قال ~~هنا~~ بالكفارة والنفقات بالتفاوت بين المدينة وغيرها لقناعتها. قال الأمر في هذا الزمان إلى خلاف ذلك، فصاروا أرفه الناس عيشاً، وأكثرهم فيه للآكل والملابس إسرافاً، أعني الكبراء منهم، وأما الفقراء وغالب المجاورين — خصوصاً المغاربة — فهم على حالهم من الفقر والمسكنة.

ولقد أُثْبِرْتُ أنَّ للنساء عليهم عادة يسمونها الشخشخة، وهو ما تشتري به المرأة ما تشتهي من الأزهار، فربما بلغ ذلك ريالاً في كل يوم<sup>(٢)</sup>.

(١) : ١ / ٢٨٤ (٩).

(٢) : ١ / ٣٠٢.

**عادات أهل المدينة :** وقال<sup>(١)</sup> : ولما استهل ربيع النبوي نظف الحرم الشريف وفرش بفرشه المعهودة، من الزرابي المبوثة الحسان، التي لا يوجد لها نظير إلا في بيوت الملوك، وغالبها يأتي من الهند من عند ملكها، وشُدَى بعضها حرير خالص — وكنت أتوقى الصلاة فيها — وطعمها من جيد الصوف الملون الذي لا يكاد يفرق بينه وبين الحرير إلا ذو بصيرة، يفرش به المسجد النبوي القديم المسقف كله، وأخرجت الربائع التي فيها المصاحف العتيقة والأجزاء الحسان من وقف الملوك والكبراء وصَفَّت في قبلة المسجد، وفتحت خزائن الكتب العلمية الموقفة بالحرم الشريف يستعير منها الناس للقراءة، وشرع الأئمة في القراءة والتدريس.

وكانت عاداتهم إذا كان اليوم السابع عشر من ذي القعدة — ويسمونه الكنيس — جمعت بسط الحرم كلها وأدخلت في المخازن فلا يبقى في المسجد إلا الحصر، وأدخلت المصاحف التي في المسجد والسبحات إلى الروضة. وردَّ كل من استعار كتاباً إلى صاحبه أو إلى ناظر الخزانة التي أخذ منها، واقتضي غالب الديون، وتفاصيل الشركاء، وانتهى أمر غالب الأكرية، يتهأون بذلك للموسم، لأنه في غالب الأمر مظنة ارتحال قاطن، وقدم غائب، واجتماع الناس من الآفاق، واشتغال أهل المدينة بقبض الأقوات والجرايات التي تأتيمهم من الأوقاف، وذهاب من يريد النسك إلى مكة، أو من يريد التجارة، فلا يبقى في المدينة إلا القليل من الناس، ويكنس الحرم الشريف في ذلك اليوم، وفيه يكنس البيت العتيق بمكة أيضاً، ويفعل فيها مثل ذلك.

وأيام الموسم عند أهل الحرمين فيها يجمعون غالب أمور معاشهم، فلا يتفرغ أحد لتدريس ولا عبادة إلا ما لا بُدَّ منه، فإذا انقطعت أيام الموسم وذهبت الأركاب الواردة من الآفاق، ولم يبق بالحرمين إلا أهلها، رجعوا إلى معتاد حالهم، في الأمور الدينية من القراءة والتدريس وأنواع العبادات، والدنيوية من الفلاحة والتسعير في الأسواق وتصحيح المكايل والموازين.

(١) : ١ / ٢٨٤.

وأما أيام الموسم فلا سِغَر معلوماً، ولا مكيال وافياً، ولا ميزان صحيحاً، كلُّ يفعل ما شاء، ولا يتكلم الولاة في شيء من ذلك، إلا أن يقع أمر مهم.

ويتنافس الناس في الخدمة في ذلك اليوم بنقل البسط وغيرها، ويعمل في ذلك الأمراء والكبراء العظام فن دونهم. ولقد رأيت الأمير إبراهيم الذي كان أمير الحاج المصري، وهو من الأمراء الكبار، مُشَمَّراً عن ساقه، قد جمع عليه ثيابه، وقد كاد الغبار أن يوارى بشرته وجهه، وهم يخرجون صناديق الكتب من الحجرة الشريفة، وما كان يتولَّى الخدمة هنالك إلّا مَنْ وَمَنْ. ولقد جهدت أن أتشرف بشيء من تلك الخدمة فلم أقدر إلا على بسط الفرش في محالّها بعد وصولها إليها.

ولما قربت ليلة المولد الشريف بولغ في تنظيف الحرم وتزيينه، وغسلت مصابيحها، وجعل فيها مائعٌ شديد الحمرة لا أدري ما هو، وألقي فوقه قليل زيت طيب أخضر، فإذا توقد المصباح ظهر إشراق المصباح لشدة صفائه وملاقاته لضوء النار، وأشرقت حمرة ذلك المائع لكونها ملاقية لصفاء الزجاج، فتصير حرته كحمرة الياقوت، وذلك الخط من الزيت فوقه أخضر كالزمرّد، وفوقه صفاء الزجاج يتموج فيه ضوء النار، وينعكس فيمازج أشراقه صفاء الزيت وخضرته، وصفاء المائع الأحمر وحرته، فلا تسأل عن حسن ذلك المنظر وهائه، وقد رتبت المصابيح في تعليقها ترتيباً حسناً لائقاً، وشكلت تشكيلاً بديعاً بين تربع وتدوير، فيا له من منظر ما أبهجه، وليل ما أسرجه...

فإذا كان بعد صلاة العصر من اليوم الحادي عشر، أخرجت القناديل الكبار والحسك العظام من الحجرة الشريفة، غالبها من النحاس المطلي بالذهب، وكل واحدة أعظم من قعدة الرجل العظيم، وصفت في صحن المسجد، ووضعت فيه الشموع الغليظة الصافية اللون، منها ما يزن نصف القنطار ومنها دون ذلك، وفي وسط تلك القناديل قنديل كبير من فضة خالصة، زنته أكثر من قنطار، فيه خمس حسك كبار من فضة مدور الشكل، فيوضع في كل حسكة منه شمعة، وتبسط البسط الرفيعة من جوانب القناديل من كل جهة، لجلوس الأمراء وأرباب المراتب، وجلوس المنشدين، فإذا صليت المغرب أوقدت المصابيح كلها، والشمع

الذي في صحن المسجد، وأخذ الناس في الاجتماع، وأوقدت أربع مشاعل كبار، على أساطين معدة لذلك في صحن المسجد، واثنان في مقدمه، واثنان في مؤخره، فإذا صليت العشاء جلس الأمراء في الفرش المعدة لهم، كل على مرتبته، وجلس الشعراء أمامهم والمنشدون، وضربت خيمة قريبة من باب النساء، ووضعت فيها أنواع الأشربة الحلوة، فإذا امتلأ المجلس وغصَّ بأهله وجلس كل واحد في موضعه، قام المنشدون فينشدون من غرر القصائد في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، ما انتخبوه وأعدوه لذلك الموضع بألحان عجيبة، وتراجع متسقة، ويأزائهم جماعة يردون عليهم بأصوات حسنة، فيجيء السقاءون بأنواع الأشربة الحلوة فيسقون الأمراء، ثم المنشدين ومن معهم من أتباعهم، ثم سائر الناس، ثم يؤتى بأنواع الرياحين والأزهار فتوضع بين أيديهم أضغافاً، ثم تفرق أيضاً على الحاضرين، ثم يؤتى بأطباق من اللوز والسكر وأنواع الحلوى فتفرق أيضاً، وينثر ما بقي منها على عامة الناس، ولا يزالون كذلك حتى يمضي من الليل ما شاء الله، النصف أو قريب منه، فينصرفون.

وهذه الليلة من الليالي الغرّ المسترخص شراؤها بباقي العمر، لولا ما شأنا من كثرة النساء في المسجد وإكثارهن من الولاول، إلا أن أكثرهن في مؤخر المسجد من قبة الشمع وما حولها إلى آخر المسجد<sup>(١)</sup>.

ومن عادة أهل المدينة أيضاً في كل ليلة جمعة أن يجتمع الناس بعد صلاة العشاء، في آخر أروقة المسجد النبوي الموالي لصحن المسجد، فيأتي جماعة من المنشدين فينشد كل واحد قصيدة أو قصيدتين بصوت رخيم وتطريب وتقسيم، والناس محذقون بهم، ولهم أتباع يردون عليهم، مثل ما تقدم في ليلة المولد، إلا أنهم لا يحتفلون لذلك في ليلة الجمعة، كاحتفالهم لليلة المولد ولا قريباً منه<sup>(٢)</sup>.

ومن عاداتهم يوم الجمعة الخروج للبقيع، ووضع الرياحين الكثيرة على القبور، خصوصاً المشاهد الملوثة، فيكون عندها أضغاث من الرياحين، ويؤتى به إلى الحجرة الشريفة أيضاً، ويلقى من طيقان الشبايك التي داخلها، فلا يزال

(١) : ٢٨٤/ ١ - ٢٨٦.

(٢) : ٢٨٦/ ١ و ٢٨٧.

هناك حتى يذبل ويذوي، فيخرج في كناسة الحجرة ويقتسمها الأغوات بينهم مع باقي الشمع الذي يوقد داخل الحجرة وما يتساقط من الطيب، فيجمعون ذلك فيهدون منه لأصحابهم والأكابر ويبعثون منه إلى من يهاديهم من أهل الآفاق<sup>(١)</sup>.

ومن عاداتهم يوم الجمعة أيضاً أن يكنس المسجد النبوي كله. ويؤتى بأغطية من ديباج أسود مخصوص بالذهب فيعلق على أبواب المسجد، ويؤتى برائتين سوداوين من ديباج مخصوص أيضاً، فيركزان عن يمين المنبر وشماله، وتكسى درج المنبر من أعلاه إلى أسفله ديباجاً من ذلك النعت، ويعلق أيضاً على أبواب الحجرة الشريفة. فإذا كان قبل الزوال بقریب من ساعتين طلع المؤذنون على المآذن، فيبتدئ مؤذن الرايسية(٢) بالذكر والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وقراءة آيات من القرآن، فإذا فرغ تلاه صاحب السليمانية على نحو من ذلك، ثم لا يزالون كذلك يتناوبون الذكر والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والتلاوة على المآذن كلها إلى أن يخرج الإمام بأثر الزوال، يقتسمون الوقت بذلك، فإذا قرب دخول الإمام، قام أحد المؤذنين على سرير المؤذنين فينشد ما شاء الله، فإذا دخل الإمام ورقى المنبر أذن المؤذنون دفعة واحدة داخل المسجد على السرير الذي وسط المسجد، وكيفية أذانهم أنه يبتدئ رئيسهم فيقول: الله أكبر الله أكبر، فيقوله الآخرون بعده دفعة واحدة، ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله مثني، فيقولونه أيضاً بعد فراغه دفعة واحدة، وهلم جراً إلى آخر كلام الأذان<sup>(٢)</sup>.

وأما الخطابة فهي كالإمامة موزعة بين فقهاء المدينة، لكل واحد مقدار معلوم من الأيام على قدر حصته التي يأخذها من جامكية الخطباء، فمنهم مقل ومكثر، وذلك إما بالوراثة من أسلافهم أو بالشراء من الولاة وهو الغالب، فمنهم من تدور نوبته في كل شهر مرة، ومنهم من لا اتصل إليه إلا مرة في السنة، ومنهم بين ذلك على حسب أنصبتهم في المال المأخوذ على ذلك.

(١) : ٢٨٧/ ١

(٢) : ٢٨٧/ ١

ومن عادة المدرسين في المدينة تعطيل القراءة في المكاتب والتدريس يوم الثلاثاء ويوم الجمعة، ويقرأون فيما سوى ذلك من الأيام. خلاف عادتنا في المغرب من التعطيل يوم الخميس والجمعة، فكنت أيام إقراضي بالحرم الشريف يكلفونني القراءة يوم الخميس، فيشقُّ ذلك عليّ لكونه خلاف المعتاد لدينا، ولخروجنا في ذلك اليوم إلى زيارة المُحَدِّد أو غيره من المشاهد، فطالبهم كل المطالبة أن نعوض الخميس بالثلاثاء، فأبوا كل الإباءة، فجريت على عادتهم كما قيل:

إن جئت أرضاً أهلها كلهم  
عَوْرٌ فغمض عينك الواحد

ولا أدري ما السبب في تعطيل الثلاثاء لديهم، والخميس والجمعة سببها شهر.

ومن عادتهم في إقامة الصلوات الخمس في الحرم الشريف تقديم الصلوات في أول الوقت ما عدا الصبح للحنفي، فيؤخره إلى قرب الإسفار، فيصلون الظهر أول ماتزول الشمس، وما يقيل غالب الناس إلا بعد الصلاة، فيذهبون بعد الصلاة إلى منازلهم لنوم القائلة، وكان ذلك يشق على الغرباء قبل اعتيادهم لذلك، فتكاد صلاة الظهر تفوتهم في المسجد، لأنهم لا يتأهبون لها إلا بقدر الأذان، وليس بين الأذان والصلاة قدر يسع التأهب، فن لم يتأهب للصلاة قبل دخول وقتها فاتته في الجماعة غالباً، وذلك خلاف السنة في تأخير صلاة الظهر إلى ربع القامة. [أو أزيد للإبراد في شدة الحر] <sup>(١)</sup> ...

وأول من يصلي من الأئمة الشافعي ثم الحنفي إلا في صلاة المغرب، فيتقدم الحنفي لضيق وقته عنده كالمالكي، ولا يؤم بالمدينة من الأئمة سواهما من أرباب المذاهب إلا في الجمعة، فيصلي صاحب النوبة على أي مذهب كان، فيتناوب الإمامان الصلاة في المحراب النبوي، فإن صلى أحدهما فيه صلى الآخر في

(١) : ١ / ٢٨٩ وما بين الربيعين من زيادات «الناصرية».

المحارب الذي على يمين المنبر الشريف، وأما المحارب العثماني الذي في الصف الأول فلا يصلى فيه إلا في بعض أيام الموسم إن كثّر الناس<sup>(١)</sup> .

ثم قال : ربما صلى بعض المالكية في بعض الأوقات بالناس بتعذر غيره ممن هو أهل أو إنابته له، فيصلي على هيئة الشافعي من الابتداء بالبسملة وقبض اليدين ورفعهما للركوع والرفع منه، وفي أول كل ركعة وتثنية التسليم جهراً وتأخير القنوت عن الركوع والجهر به.

وكان بعض المالكية ينكر ذلك على فاعله فيقول : إما أن يصلي الصلاة على مذهبه أو يدع الإمامة، وكنت أنا أخفف الأمر في ذلك فأقول : قد علم من الشارع التحذير من الأمور التي تقع في المخالفة وتغر الصدور خصوصاً في أمور الدين.

ثم استرسل في الكلام في هذا الموضوع بإيراد الأمثلة والأدلة.

ومن عاداتهم في الصلاة على الجنائز إدخال الجنائز إلى الحرم الشريف، فيصلي عليها بالمسجد، ثم يمر بها أمام الوجه الشريف ويوقف بها وقفةً، ثم يذهبون بها إلى محلها من البقيع أو غيره<sup>(٢)</sup> .

ومن عاداتهم في الإملاكات أن يكون عقد النكاح في المسجد الحرام [فيأتي أكابر المدينة من أبواب المراتب والمناصب، والخطيب، فيجلسون صفين، من المنبر إلى الحجرة الشريفة، صفٌ مستقبل القبلة، وصفٌ مسند ظهره إلى جدار القبلة، وجلس عن يسار الشيخ كبير الخطباء بالمدينة أحمد البري، وبإزاء الخطيب المتعاقدان، فشرع في الخطبة، وأطال الثناء على الله بما أهله، وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم].

ولقد حضرت إملاك هندي قدم من مكة في الرجبية مع الشيخ عيسى كان

---

(١) : ١ / ٢٩٠.

(٢) : ١ / ٢٩٥، وأما الجملة الأخيرة فهي من زيادات : الناصرية ج ٢ / ٥٩.

بينهما صحبة. فأراد العقد لولده مع ابنة رجل آخر من كبار تجار الهند، فلما كان وقت العقد ذهب بي الشيخ معه وكرهت خلاف أمره، وما كنت أحب حضور محافل أهل الدنيا المشوبة بأنواع من التصنيع والمباهاة خصوصاً في ذلك المحل الذي حق الإنسان فيه أن يخضع ويخشع... فجلس الشيخ مسنداً ظهره للمنبر النبوي وجلست بإزائه، وجلس أرباب المراتب من العلماء والخطباء وأكابر الناس ثم ذكر المتعاقدين، وأطال الثناء عليهما إلى أن ذكر العقد وأشار إلى المتعاقدين، ورضياً بذلك كل ذلك بلسان الدلو(؟) وصوت جهوري، وذلك الذي أنكرته مع المبالغة في الثناء على المتعاقدين بما أكثره زُورٌ بحضرة أشرف الخلق وفي روضة الجنة، فصغرت نفسي عندي، وتضاءلت، وودت آتي لم أحضر ذلك المجلس، ولو كنت أعلم أنَّ صورة المجلس على هذا الوجه ما حضرته.

ثم أُنِّي بأطباق الرياحين ووضعت بين الصفين، وأطباق من اللوز والسكر وفرق ذلك على الحاضرين، وقام المنشد فأنشد قصيدة أو قصيدتين في مدح النبي صلى الله عليه وسلم فافترق المجلس، وقام الحاضرون إلى المتعاقدين يهنئونها، فانسَلَّت وكان ذلك ضحى وذهبت. وهذه صورة إملاك كل ذي وجاهة ورياسة من أمير أو تاجر أو صاحب خطة، وأما غيرهم فعلى حسب ما يتفق لهم.

فإذا كان ليلة الدخول أُنِّي بالرجل ومعه جماعة كبيرة من أصحابه وأقاربه، ومعه الشموع حتى يوقف على باب المسجد بعد العشاء الأخيرة، فيدخل ويسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ويدعو فيخرج، ثم يذهب به كذلك يزفونه إلى بيت المرأة في دار أهلها، عكس المعتاد في كثير من البلاد أن المرأة هي التي تُزَفُّ إلى زوجها، وأن الدخول في بيت الزوج، وعند هؤلاء لما كانت العادة الدخول بالمرأة في بيت أهلها صار الزوج هو الذي يُزَفُّ، فإذا أصبح الزوج ذهب من بيت الزوجة إلى بيته، وأخذ في إطعام الناس طعام الوليمة، وجاء الناس لتهنئته، وفي الليلة المقبلة تأتي الزوجة من دار أهلها إلى دار الزوج، ولكل قطر عادة ولكل قوم سادة، وعادات السادات سادات العادات<sup>(١)</sup>.

(١) : ١ / ٢٩٦.

نساء المدينة : (ونساء المدينة هن عوائد مذمومة في الخروج إلي التنزه والتفرج في البساتين، والأماكن المنفسحة، ويسمون ذلك القايلة(؟) فيقولون : نقيّل اليوم في الموضع الفلاتي، وخروج الرجال لذلك أكثر، فتكلف المرأة زوجها في تلك من النفقة ما لاقدرة له عليه)(١) .

وقال أيضاً عن النساء في المدينة : .. (بيد أن نساءهم يبالغون(؟) في الستر الظاهر بحيث لا يبدو من المرأة ولا مغرز إبراة، حتى من أطرافها، يلبسن الخفاف السود، ويتبرقعن، ويسدلن من أزهرن ما يكون نهاية في الستر، إلا أنهن يكشرن من الطيب عند الخروج، فيوجد عرف الطيب منهن من مسافة، فيكون ما سترته ظاهراً أبديته باطناً. وهذا فسر بعض العلماء قوله صلى الله عليه وسلم : «رُبَّ كاسية في الدنيا عارية في الآخرة»(٢) .

من عادات أهل المدينة : (ولأهل المدينة ولوع وغرام شديد بأكل اللحم، زاعمين أنهم يستضرون بتركه لحرارة أبدانهم ويسها، فيحصل لهم الترطيب به، فإذا أكلوا غيره حصل لهم يُئس في الطبيعة، حتى أن من نسائهم من لا يطبخ غداءً ولا عشاء إلا أن يكون لحم، ويقلن : نحن لانعرف الطبخ بلا لحم، ولو أدّى ذلك إلى بقائهم بلا عشاء ولا غداء. وقد أخبرني بعض أصحابنا أن من أهل المدينة من يشتري العبد فلا يكون له شغل إلا شراء اللحم، فيدور عليه في المدينة وأسواقها وفي العوالي وقباء، في زمن قلته، فلا يرجع إلى سيده حتى يحصله، أو يدور المدينة ونواحيها كلها، فإذا حصله كان ذلك شغله في ذلك اليوم، ولا يستعمله في غيره، لأنه إنما تملكه بقصد ذلك)(٣) .

الشروة والتجارة في المدينة : وقال : وبعد رحيلهم — يعني المصريين — من المدينة بثلاثة أيام نزل الركب الشامي، ولقوا من الحرّ في الطريق شدة عظيمة كالذي وقع للمصري قبلهم أو أشد، فأتت منهم جملة كثيرة في الطريق،

(١) : ٢٥١/ ١ .

(٢) : ٢٤٥/ ١ .

(٣) : ٣٠٢/ ١ .

وجملة بعدما وصلوا إلى المدينة. وأقاموا بالمدينة المشرفة عشرة أيام... ونصبت الأسواق، واتسعت الأرزاق، وقسمت الصدقات، وكثرت الإنفاقات، وبالجملة فلا ينتفع أهل المدينة بركب انتفاعهم بأهل الشام، فإنهم يقدمون بتجارات كثيرة، وطعام وزيت وأشربة يبيعونها في المدينة عند قدومهم، ويدّخرون ما بقي إلى الإياب فيبيعون كل ذلك بالمدينة.

ولأهل المدينة عند قدومهم عادة مذمومة، وهي أنه لا تبقى مخدرة من النساء إلا خرجت تبشر البيع والشراء بنفسها، ولهن على الرجال في ذلك الوقت إتاوة يؤدونها لهن، فيبتعن بها ما أحبن من اللائق بهن من طيب وشبهه، وربما لا تقنع إحداهن من زوجها إلا بالخمسين ديناراً فأفوقها. فقد حكى أن امرأة بعض المدرسين بها، أعرفه، طلبت منه في ذلك اليوم ما تخرج به إلى السوق على العادة، فدفعت لها عشرة دنائير، فاستقلتها وذهبت من شدة الغيظ فرمت بها في المرحاض<sup>(١)</sup> وأتلفتها عليه، وقالت : أمثلي يخرج إلى السوق بهذا المقدار، فلم يملك من أمره إلا أن ذهب وتسلف خمسين ديناراً فدفعتها لها<sup>(٢)</sup>.

---

(١) : حاشية مكتوبة بالقلم : (هذه الدالة التي لنساء المدينة على أزواجهن قديمة في الأوس والخزرج، سكانها الأقدمين، واقتدى بهن نساء المهاجرين بعدما كنّ كالميت بين يدي... بمكة عند أزواجهن، يشير إلى ذلك قصة عمر مع زوجته وقصة حفصة مع النبي صلى الله عليه وسلم كما في «البخاري» وغيره.

(٢) : ٢٤٥/١.

## عادات أهل المدينة في المعاملات التجارية



## عادات أهل المدينة في المعاملات التجارية

(ومن عاداتهم في التعامل أنهم يسمون الأربعين مايدياً<sup>(١)</sup> حَرْفاً<sup>(٢)</sup>) فيقولون : عشرة أحرف وعشرون حرفاً<sup>(٣)</sup> ، يعنون كل أربعين قيراطاً من قراريط الفضة المسكوكة يعد حَرْفاً، كقولنا في بلادنا لهذا المقدار مثقالاً، ويقولون للدينار من الذهب المسكوك شريفياً أو سلطانياً.

ويقولون للريال المسكوك من الفضة ريالاً وقرشاً. قال ابن ناصر : [قلت : وهذا خلاف عُرف مصر في القرش، فإنه عندهم أقل من الريال]<sup>(٤)</sup> .

ويقولون للقيراط المسكوك مُحَلَقاً [وبمصر يقولون له فضة وقائدياً].

ويقولون للصاع الذي به التعامل رُبْعِيّاً، ولجزءه كيلة<sup>(٥)</sup> ، ويسمون الحروف<sup>(٥)</sup> المتقدمة إذا ذكرت مجموعة ذهباً فيقولون : عشرون ذهباً أو ثلاثون ذهباً يعنون عشرين حَرْفاً<sup>(٥)</sup> من غير قصد إرادة الذهب، إذ التعامل بالذهب إنما هو بالدينانير وأجزائها.

وقد وقعت بيني وبين بعض مدرسي المالكية مناظرة بسبب هذه المسألة، أعني تسمية الحرف بالذهب، وذلك أن بعض الموثقين كتب في معاملة بين شخصين : أربعين ذهباً أو ثلاثين ذهباً — يعني الحروف — فلما كان وقت الاقتضاء قال له : إنني آتيك بالصروف التي هي العدة المذكورة من القراريط، قال له المدرس : لا يحل ذلك إلا مع المتاجرة لأن هذا صرف مؤخر، فإن الذي في ذمتك هو الذهب، وأنت الآن تريد دفع الفضة عنه، فهو صرف ما في الذمة

(١) : كذا في الناصرية : ٢ / ٦٠.

(٢) كذا في «الناصرية»، وفي العياشية (صرفاً) وفي العياشية : (الصروف).

(٣) زيادة من «الناصرية» ٢ / ٦٠.

(٤) في الأصل (ركيلة).

(٥) في الأصل (الصروف) و(صرفاً).

ولابدُّ فيه من صرف هنا، إذ المراد بلفظ الذهب هنا العدة المذكورة من الفضة باتفاق من المتعاملين وغيرهما من سائر الناس، حتى المدرس بنفسه لا ينازع في ذلك، والعبرة إنما هي بمدلول اللفظ المفهوم منه عند المتعاقدين لا بمدلوله لغة، فإن العرف الخاص نقل هذا اللفظ من مدلوله لغةً إلى مدلول آخر معروف في العرف الخاص لا ينازع فيه أحد من أهل البلد، فلو أرادوا مدلول الذهب لغة<sup>(١)</sup> عنه باللفظ الدال عليه في عرفهم كما قدمنا. ويفيد ذلك كون هذا المقدار من الفضة، وهو الأربعون قيراطاً، ليس في الذهب قَرْدٌ يقابله من أفراد الذهب المسكوك الذي يقع به التعامل حتى يصار إلى أنه هو المراد، فلو قلنا إن المراد الذهب لغةً لكان فيه جهالة، إذ لا يُدرى أي أربعين ديناراً أو أنصاف الدينار أو أرباعه، ولأن كل ذلك لا يقابل الأربعين قيراطاً التي هي المرادة، فلو كان في التعامل ذهب مسكوك يروج رواج الأربعين قيراطاً لتوهم أنه المراد. فلما بلغ ما قلنا إلى ذلك المدرس لم يذعن للحق، فطلب الاجتماع بي، وجاءني، وذكرت له ما تقدم فلم يجد مدفعاً إلا أن قال : انظر ما تتقلد من ذلك فأني أخاف أن يكون ذلك ذريعة للناس إلى التعامل بالربا. فقلت له : إذا وضع الحق فلا يترك مخافة الوقوع في الباطل، فإن ذلك إنما يكون مع التباس الأمر واشتباؤه فيحتاج الإنسان لدينه، فيترك ما لا بأس به حذراً مما به البأس، وأما بعد تمييز الباطل بصفته المعلومة شرعاً وتمييز الحق جانباً منه بوصفه المعروف حتى لا يخاف التباس الحق بالباطل، فلا معنى لترك الحق إذ ذلك لأجل توهم متوهم.

ثم انخر بنا الكلام إلى مسألة صرف الريال بالمايدية وهي القراريط المذكورة من دون وزن بل بالعدد، وقد جرى على ذلك عمل أهل الحجاز ومصر إلا القليل، وقليل ما هم، فقلت له : لو انضبط لهم مقدار معلوم من خمسين أو ستين من القراريط تكون في وزنها قريباً من وزن الريال، لخرجت عن مسألة «العتيبة» من قول ابن القاسم في الدينار بعشرين قيراطاً، من الذهب، إذ لا فرق بين الذهب والفضة في ذلك، فلما خفف في دينار واحد في مقابلة عشرين قيراطاً فليكن كذلك درهم كبير من الفضة وهو الريال في مقابلة أجزاء

(١) كذا ولعل الصواب : (لعبوا عنه).

كثيرة من الفضة، نحو الأربعين أو الخمسين أو الستين إذ لا عبرة بكثرة العدد وقلته مع اعتبار التفاوت اليسير في الوزن، وانفراد إحدى الجهتين بوحدة. ولكن لما لم ينضبط العدد المدفوع فيه الريال، فتارة يكون خمسين وتارة إلى ستين، كان في ذلك مكايسة ظاهرة، وخرجت المسألة من بابها المعروف الذي سبب الرخصة مع الضرورة. فأبى من قبول ذلك ولو مع الانضباط حتى أطلعت على كلام شيخ مشائخنا سيدي العربي الفاسي في مسألة الريال والرد فيه من دراهم وقته، أو المبادلة، وقد حقق ذلك كل التحقيق، فلما رآه، رجع إلى مثل قوله الأول، والجواب عنه ما قررنا أولاً<sup>(١)</sup>.

وقد ذكر العياشي — في موضع آخر من رحلته<sup>(٢)</sup> : (وعدد المئقال عندهم أربع وعشرون موزونة، ويقولون للمئقال الأربعيني مئقال شريفي، نسبة للأمر الشريف صاحب سجلنامه، وهذه البلاد في طاعته) انتهى. يعني بكلمة (عندهم) : أهل توات من بلاد المغرب.

### الأسعار في المدينة :

وقد كانت الأسعار أيام مجيئنا المدينة شديدة، فكان القمح ثلاثة أصع بريال، والصاع عندهم يقرب من ثلاثة أصع بصاع الزعوة(?) وأما التمر فنحو أربعة أصع بالريال، والشعير ليس بينه وبين القمح إلا يسيرُ تفاوت، خلاف المعهود في غالب البلاد، والعسل اشترت رطلاً منه للدواء بقريب من ثلث ريال، والسمن دون ذلك، وأما الفواكه فكانت في أيامها ووسط إبانها العنب بثلاثة مايدية للرطل، وقد رأيت رمانة في آخر الإبان بيعت بخمس مايدية<sup>(٣)</sup> وفواكه المدينة مع غلائها في غاية الجودة خصوصاً عنها ورطبها.

وأما الخضر فأكثرها وجوداً الجزر والباقلا والملوخية والبامية والبصل واللفت،

---

(١) : ٢٩٧/ ١

(٢) : ٢٠/ ١

(٣) : ٣٠١/ ١

والخضر البرية ليس فيها إلا الخبز، ولا يأكل أحد في تلك البلاد السمن القديم  
والشحم القويّ إلا أَضَرَّ به ما لم يكن حديث عهد بالبلد، فإذا طالت إقامته في  
البلد تطبع بطبعهم.

ولم تنزل الأسعار على ما تقدم من الغلاء، إلى أن هجم الشتاء وقرب زمان  
الربيع، أرخت السماء عزاليها بالأمطار الغزيرة المتوالية، وسالت الأودية، ولم  
يأت أحد من ناحية إلا حدث بالجود، فلانبت الأسعار وكثر العبر(?) والجبن في  
الأسواق، وكان الجبن أول ما بدا يباع بشمانية مائدية للرطل، فلم تمض إلا مدة  
يسيرة حتى صار يباع بمائدين، وكثر اللحم السمين، وكان قبل ذلك هزياً  
جداً، ومع هزاله قل ما يوجد<sup>(١)</sup>...

---

(١) : «العياشية» : ١ / ٣٠٢.

**من عادات أهل المدينة**



## من عادات أهل المدينة

ولأهل المدينة موسم كبير في شهر رجب، يحتفلون فيه لزيارة حزة والشهداء (رضي الله عنهم) يأتي الناس إليه من أقطار الحجاز، من مكة واليمن والطائف والينبع، فيحشر هنالك خلائق لا يحصون، يقاربون ما يجتمع في موسم الحج، ويخرج أهل المدينة إلا القليل، بأولادهم ونسائهم، ويخرجون معهم المضارب الحسان والخيم الكبار، ويخرج أمراء المدينة وعسكرها، وتنصب الأسواق العظيمة هنالك، يخرجون من أوائل رجب، ويتلاحق الناس كل على قدر حاله، فيتكامل خروجهم في اليوم الثاني عشر، وهو اليوم المشهود عندهم ويوم الزينة، فلا يبقى بالمدينة إلا أهل الأعذار ومن شاكلهم، ويحصل هناك في تلك الليلة من أنواع اللهو والطرب واللعب أشياء، والرمي بالمدافع والمحاق، ويبيت الناس طول ليلهم ويومهم في القراءة والزيارة حول القبر، ويوقد هنالك من الشمع شيء كثير، وأصحاب شيخنا القشاشي هم المتولون لوظيفة القراءة حول القبر، لاتنقطع القراءة الليل بأجمعه والنهار بتمامه، وكبيرهم شيخنا الملا إبراهيم (رضي الله عنه) معهم لايفارقهم في ذلك المحل. وكيفية القراءة، أن تجتمع جماعتهم كلهم، فيبدأ أحدهم فيقرأ جزءاً ويسمع الباؤون، فإذا فرغ من حزبه أخذ الذي يليه في القراءة والآخرون يستمعون، ثم كذلك سائر الليل والنهار. وحكي لي أن بعض الفقهاء بالمدينة كان ينكر على أهل المدينة خروجهم إلى أحد في رجب ويقول لهم : إن ذلك من البدع المذمومة لما يحصل في ذلك من أنواع اللهو والسرف في المطاعم وغيرها، والتكلف في النفقات، والخروج من المدينة بالأهل والأولاد والخيم، الشبيه بشد الرحل، بل هو مع ما في ذلك من التشبه بمواسم الحج في الهيئة واعتقاد القربة، واعتياد يوم في السنة إلى غير ذلك من الأمور التي لاتوافق ظاهر الشرع، وكان ذلك الفقيه لا يخرج معهم إذا خرجوا، ويشدد التكرير عليهم في ذلك، فبينما هو ذات يوم من الأيام التي تهيأ الناس فيها للخروج جالس في الروضة أو قريب منها، إذ غلبته عيناه فرأى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يدخل ويخرج في الحجرة، ويقوم ويقعد، كفعل متهتئ لسفر، وأثاث

السفر معلة بين يديه. فقال له : يا رسول الله ما هذا الذي أرى؟ أتريد الانتقال عنا والخروج من المدينة؟ قال : لا، إنما نريد الخروج لزيارة عمنا حمزة مع أهل المدينة، أو كلاماً هذا معناه. فانتبه الفقيه من نومه، وتبأ للخروج مع الناس، فعجبوا من ذلك وسألوه فأخبرهم بذلك<sup>(١)</sup>.

من عادات أهل المدينة أيضاً قال : (وأهل المدينة يخرجون إلى هذه المساجد — مساجد الفتح — لقصد التفرج في أيام كثيرة، ولهم يوم معلوم في السنة يخرجون إليها بالأخبية والأطعمة الكثيرة، فيبيتون بها في ليل وطرب، وهو يوم النصف من شعبان. وقد خرجنا مرة لزيارة المساجد فوجدنا الأعلى منها مملوءاً نساء، ولم تتمكن من الدخول إليه، وهن يطبخن فيه أنواع الأطعمة)<sup>(٢)</sup>.

ومن عاداتهم بمكة والمدينة التهئة بالشهر أي شهر كان، خلاف المعتاد لدينا بالمغرب، فإن التهئة عندنا إما تكون بالأعياد وما شاكلها. ولديهم لأبد من التهئة في أول يوم من كل شهر، فيذهب كل واحد إلى من له عليه حق بولاية أو شيخوخة أو صفة حتى يهتئ بالشهر في منزله، والله در القائل :

إن الأهلة في السماء مناجل  
بطلوعها تحصد الأعمار

أبداً يُهتئ بعضنا بعضاً بها  
وطلوعها بأقولنا إنذار

من عادات أهل المدينة أيضاً : وقال<sup>(٣)</sup> : (وسيل العقيق عند أهل المدينة من أعظم المنتزهات من سالف الدهر، ولشعرائهم الأقدمين فيه أشعار كثيرة.

وقد حضرت بالمدينة سيله ثلاث مرات، فخرج الناس على طبقاتهم ونصبت الخيام والمضارب بمخافتيه، وطبخت الأطعمة الكثيرة مع سرور وهو وطرب، وأقاموا

(١) : ٢٥٤/ ١ . ٢٥٥.

(٢) : ٢٥١/ ١ .

(٣) : ٢٧١/ ١ .

به يوماً أو يومين، وقد سال مرة سيلاً عظيماً منع الرفاق الواردين من مكة للرجبية من الوصول إليها إلا بعد مدة، وقد حضرني أبيات ونحن على شاطئه مع جملة من أصحابنا أولها :

جرى العقيق ودمعي كالعقيق جرى  
فلا تسل سائلي عما هناك جرى

( ٨ أبيات )<sup>(١)</sup> .

من عادات أهل المدينة (النخالة) : لهم عادة في كل يوم خيس غالباً يأتون إلى مشهد السيد إسماعيل من أول النهار، ويطبخون هنالك طعاماً كثيراً، ويجمعون رجالاً ونساء بأولادهم، وفي الغالب يأتون لختان أولادهم، فإن من له ولد يريد ختانه لا يختنونه إلا في ذلك المكان، وربما جاؤوا لغير ختان بل لمجرد الزيارة وإطعام الطعام، ولا يحضر معهم غيرهم. وغالب ما يطبخون هناك الأرز والهريسة باللحم.

وصفة طبخ الهريسة أن يُجَعَلَ القمح في المطبخ ويجعل معه اللحم، ويطبخ حتى يفارق اللحم العظم فتزال العظام، ويبالغ في طبخ اللحم مع القمح حتى يطيب القمح وينزل، فيأخذون عصياً شبه المغارف عراض الرؤوس، فيلوكون ذلك به حتى يختلط اللحم مع القمح ويصير مثل العجين، فيأخذونه في الأواني ويصبون عليه السمن، وهي عند أهل الحجاز من أشهر الأطعمة، وهي قوية، إذا شبع منها الإنسان قد لا يشتهي الطعام يوماً وليلة<sup>(٢)</sup> .

الزيارة الرجبية : جرت عادة أهل المدينة بزيارة قبر سيدنا حمزة رضي الله عنه كل يوم خيس، وربما باتوا هنالك ليلة الخميس في غالب الأحوال... ولا أعلم لاختيارهم الزيارة في يوم الخميس سبباً إلا أن يكون ما ورد من أن الأموات يعلمون بزائرهم يوم الجمعة، ويوماً قبله ويوماً بعده، فلما كان يوم الجمعة يضيق المشي فيه بسبب الاشتغال بمقدمات الصلاة وزيارة البقيع، ويوم

(١) : ٢٧١/ ١ .

(٢) : «العياشية» : ٢٧٤/ ١ .

السبت لزيارة قبا، فلم يبق إلا يوم الخميس...

ثم ذكر أن المشهد عليه قبة وصفها بالإتقان والعلو، وأن الباب مصفح بالحديد.

ومعروف أن بناء القباب على القبور من الأمور المحرمة شرعاً، وقد طهر الله هذه البلاد المباركة من جميع البدع والخرافات والأمور المحرمة بانضوائها تحت الحكم السعودي الميمون.

وذكر أن حول المشهد بناء متسع، فيه بئر، وفيه أخلية للوضوء، متصلة بالسطح... وفي خارج المشهد بئر أخرى كبيرة، وبازائها صفة المسجد، وتحتها ماجل ماء، يهبط إليه بدرج.

وباب المشهد في سائر الأيام مقفل لا يفتح إلا يوم الخميس، يأتي القيم من المدينة بالقصد لذلك.

قال : ولما كان أول رجب جعل الناس يقدمون من أقطار الحجاز، كمكة والطائف واليمن ونجد وجدة وما والاها من أطراف اليمن لشهود الرجبية، وزيارة سيد الشهداء حمزة صلى الله عليه وسلم، فما من يوم إلا وتدخل فيه قافلة من مكة ونواحيها..

ولم يزل الناس يتلاحقون، فخرج أهل المدينة إلى أحد من اليوم الخامس والسادس من الشهر، ورجعوا في اليوم الثاني عشر، ولم يبق بالمدينة إلا القليل، وخرج العسكر لحراسة الناس في الطرقات من المدينة إلى أحد.

وقال : (٢) وبعد الرجوع من أحد نزل الوافدون في المدينة ينتظرون الرجبية وهي ليلة سبع وعشرين منه، ليلة المعراج، وقد وفد خلق كثير من الأعراب، وكانت بالمدينة سوق عظيمة، وامتلاً المسجد وجوانبه، فما من يوم إلا ويزداد الخلق فيه كثرة.

(١) : ١ / ٢٥٣ - ٢٥٥.

(٢) : ١ / ٣١١.

فإذا كانت الليلة السابعة والعشرون تكامل حشر الناس، فمن لم يدخل إلى المسجد من قريب من العصر قلماً يجد موضعاً لصلاة المغرب والعشاء، فيفص المسجد بمن فيه، ويفتح الحرم طول الليل، ويبيت الناس في ذكر وقراءة وصلاة، كل على حسب ما يسنح له إلى الصباح، فإذا أصبح أخذ الأعراب في التوديع، فيسمع لهم حنين كحنين الإبل في المسجد، وصياح وصراخ، رافعين أصواتهم بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والاستغاثة به، فيرق قلب سامعهم، ويحن ويشفق لهم على جفائهم وجهلهم، فلا يأتي مساء ذلك اليوم حتى لا يبقى بالمدينة منهم إلا القليل....

ولما استهل شهر شعبان، أخذت القوافل في الرجوع إلى مكة، ورجع غالب من جاء من أهلها، ولم يبق إلا القليل ممن يريد شهود رمضان بالمدينة<sup>(١)</sup>.

**الصحة في المدينة :** (ولا يأكل أحد في تلك البلاد السمن القديم والشحم القويّ إلا أضرب به مالم يكن حديث عهد بالبلد، فإذا طالت إقامته بالبلد تطبّع بطبعهم. وطبع ذلك البلد المشرف وهوؤها قلما يوافق أحداً من أهل مغربنا الأقصى، متّمن بلده ريف ذات مياه وخصب، وإنما يوافق أمزجة أهل الصحراء كتوات وتجارة؟) وأهل السودان، وذلك — والله أعلم — لفرط حرارة هؤلاء، فقلماً رأيت أحدهم مريضاً في تلك البلد إلا مرضاً خفيفاً، وقلماً رأيت أحداً ممن بلده كبلادنا ريف وخصب إلا وقد ألظّ به المرض إلا القليل، متّمن طالت إقامته جداً في البلد وتطبع بطبع أهلها<sup>(٢)</sup>.

وقال : من يوم قدومنا للمدينة كل من تكلمنا معه من أصحابنا المجاورين يقول لنا : استعدوا لحمتي المدينة، فلا بُدّ لكم منها. فإنها تحفة النبي صلى الله عليه وسلم وكرامته لجيرانه لتحريض ذنوبهم. وكان بعض أصحابنا يمتعض<sup>(٣)</sup> من ذلك، ويشق عليه سماعه منهم، ويقولون : نحن نرجو أن تكون كرامة النبي صلى الله عليه وسلم لنا بغير ذلك. فكان أولنا وقوعاً في المرض، وأطولنا إقامة فيه، والله يغفر له ويكفر زلله. وقال : ولا بُعد ولا نكر في تسمية الحمى بتحفته

(١) : « العياشيّة » : ج ١ ص ٣١٠.

(٢) : ٣٠١/ ١.

صلى الله عليه وسلم، ولذلك أصل في السنة، فقد ورد في بعض الأحاديث أن الحمى استأذنت على النبي صلى الله عليه وسلم فقال لها: «أذهبي إلى الأنصار، فإن لهم علينا يدًا» — أو كما قال النبي صلى الله عليه وسلم — وروى الإمام أحمد وغيره برجال الصحيح عن جابر: استأذنت الحمى على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «من هذه؟» فقالت: «أُمِّ مَلَدَمَ». فأمر بها إلى أهل قُبَا، فلقوا ما لا يعلمه إلا الله، فأتوه فشكوا ذلك إليه فقال: «ما شئتم، إن شئتم دعوت الله أن يكشفها عنكم وإن شئتم تكون لكم طهوراً؟» قالوا: أو تفعل؟ قال: «نعم» قالوا: فَدَعَّهَا.

ولما قرب زمان انقضاء الحرّ، وأقبلت هوادي زمن البرد، وظهرت البرودة في الهواء صباحاً ومساءً، أخذوا يدثرون أبدانهم في الثياب الكثيفة التي تلبس في أيام البرد الشديد — ويقولون: إن البرد في أول إبانته يسرع إليه فساد الأمزجة، وهو أضر من البرد الشديد الذي يكون في وسط الشتاء، ويقولون: إن الناس يلبسون من غليظ الثياب في آخر الخريف ما لا يلبسون في صحيح الشتاء، وشديد الزمهرير. وكنا نحن لإلفتنا البرد الشديد في بلادنا نتلقاه بأبداننا، ونعري له أطرافنا فرحاً بقدمه، لما قاسيناه من شدة الحرّ الذي لم نعهده مثله في قطرنا. فكانوا ينهوننا عن ذلك ولا ننتهي، ويقولون: ليس هواء هذه البلدة وبردها كالذي تعهدون. فكانا لا نلتفت لذلك، ثقةً بما نعهده في أنفسنا في بلادنا من الصبر على بردها الذي لا يكون برد هذه البلدة بالنسبة إليه إلا كنسبة زمان الاعتدال لزماني الحرّ والبرد — فكان ذلك — مع قدر الله تعالى — هو السبب في حصول المرض المتطاوّل بنا وبكل أصحابنا، ولقد صدقوا فيما قالوا، ويشهد له قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: اتقوا البرد في أول إبانته، وتلقوه في آخر أوانه، فإنه يفعل بالأبدان ما يفعل بالأشجار، فأوله محرق، وآخره مورق، ذكره الزمخشري في كتاب «ربيع الأبرار».

خصوصاً في تلك البلاد، فإن بدن الإنسان يكون مشتعلًا حرارةً لغلبة الحرّ،

فإذا فاجأ البرد البدن في تلك الحرارة أضرَّ به، بخلاف البرد يجيء في آخر  
الإبتان فإنه يصادف البدن قد سكنت حرارته (١) .

### الإدارة والحكم في المدينة

تُدار الأمور العامة في المدينة المنورة في الوقت الذي كان العياشي  
فيها (١٠٧٤هـ) من قبل أمير المدينة وولاية الأتراك، وأما شؤون الحرم الشريف  
فيتولاها شيخ الحرم، وشيخ الأغوات، والأغوات (الطواشية) يمثلون في ذلك العهد  
مُجْتَمَعاً له عاداته وتقاليده الخاصة - كما وصفه العياشي. فلنبداً بهذا الوصف .

---

(١) : «العياشي» : بتصرف ١ / ٣٠١.



## الأغوات



## الأغوات

وشيخ الحرم وهو كبير العبيد الأغوات الموقوفين على خدمة المسجد والحجرة الشريفة، والأغا بلغتهم كناية عن الخنصي من العبيد، واختاروا وقف الخنصي دون غيره لكونه أظهر وأنزّه وأكثر فراغاً من الاشتغال، إذ لا أهل له ولا ولد يشتغل بهم، وهو أبعد من دنس الجناية ومباشرة النساء، وهم عدد كثير قريب من الثمانين، يزيدون وينقصون بحسب كثرة الراغبين في الوقف وقتهم، والأربعون منهم هم الكبار الذين يأتي رزقهم ومؤنتهم من بيت المال، وما زاد على ذلك إنما يرزقون من الأوقاف التي لهم بالمدينة، أو مما يأتيهم من الهدايا والصدقات من أقطار الأرض، ويسمى ما سوى الأربعين البطالين، لأنهم إنما يستعملون في الأشغال التي هي خارج الحجرة والمسجد النبوي من الأعمال المتهنة، ولا يجلسون مع الأكابر في الدكة، وإنما يجلسون خارجها، ولهم ضبط وسياسة كسياسة الملوك، فلكل واحد منهم رتبة معلومة، وشغل معلوم. فإذا مرّ بالأصاغر أحد الأكابر قاموا كلهم، وكذا الأكابر فيما بينهم، فأكبرهم شيخ الحرم وهو يتجدد في الغالب إما في سنة أو سنتين أو أكثر، ولا يأتي إلا من دار السلطان من عبيده، ويليه النقيب، ويليه المستشار، وهو الذي يتولى قبض الصدقات وما يهدى لهم أو للحجرة، ويده مفاتيح الحجرة وحوامل الزيت والشمع، ويده جميع ما يتصرف فيه الأغوات من مصالح المسجد ومن أوقافهم، فإذا مات واحد من الأربعين دخل واحد من البطالين في موضعه، وهو من كان شيخ البطالين والترتيب في ذلك بالتقدم فن تقدم مجيئه يقدم على من تأخر مجيئه، وليس فيهم شافعي ولا حنبلي، بل كلهم حنفية أو مالكية على مذهب ساداتهم الذين أوقفوهم، وذلك لأن الشافعية والحنابلة لا يرون صحة وقف الحيوان.

ومن أوقف عبداً من الأغوات على الحجرة نُسِبَ إليه، سواء من التجار أو من الأمراء أو العلماء، فيقال : أغا فلان، وكلهم يبيتون في المسجد ما عدا شيخ الحرم والنقيب، وأما الآخرون فلا يبيت واحد منهم بداره إلا لعذر يبين من مرض

أو نحوه، ولكنهم — جزاهم الله خيراً عن تعظيم المكان وتوقيره وتبجيله وكلهم أهل خير وبركة — قد اختارهم الله لخدمة أشرف البقاع، وشرفهم بالنسبة لأشرف الخلق صلى الله عليه وسلم (١) .

وقد كان كبيرهم المتسلم أيام مجاورتنا الآغا يحيى، وهو من أوقاف الشيخ الصالح الحاج الأبر سيدي أبو حفص ابن الشيخ عبدالقادر بن بو سماحة المغربي من ناحية فجيج، وتوفي الآغا يحيى بعد خروجنا من المدينة ونحن بمكة، وتولى مكانه الآغا مصطفى وهو مالكي أيضاً.. وكلاهما كان يبالغ في تعظيمنا والإحسان إلينا.

ومن عادة الأغوات كل ليلة إذا فرغ الناس من صلاة العشاء ورواتها، قاموا بأيديهم الفوانيس الكبار — وهي الفئارات عندنا — مشعلة، ليخرجوا الناس من المسجد، فيأتون إلى المواجهة والصف الأول يقف بعضهم أول الصف ووسطه وآخره، فيخرجون كل من فيه، فإذا لم يبق أحد بذلك الصف، تكلموا بكلمة ذكر رافعين أصواتهم بها، فينتقلون إلى الصف الذي يليه، ثم كذلك حتى لا يبقى في المسجد أحد سواهم فيغلقون أبواب المسجد، ويطفئون المصابيح كلها إلا التي في مواجهة الوجه الشريف والتي داخل الحجرة، فيخرجون فرشهم من الحواصل، فينامون هناك، ولا ينام أحد منهم في المسجد، بل ولا يأتيه إلا من قصد بهم الصلاة (٢) ومنهم أناس على قدم صدق في العبادة، وغالب نوم الصغار منهم في مؤخر المسجد.

ومن وراء المسجد في الناحية الشمالية مiazza كبيرة، فيها بئر كبير وأخيلة، وفتح لها باب إلى آخر المسجد، ولا يفتح إلا ليلاً بعد غلق الأبواب، وتسرج فيها المصابيح لوضوء الأغوات، وإزالة حقنة من احتاج إلى ذلك بليل.

فإذا أغلقت الأبواب هدأت الأصوات منهم، وخشعوا، فلا تكاد تسمع من أحد منهم كلمة، فن احتاج منهم إلى أحد كلمه كأخي السرار.

ولقد رأيتهم يبالبون في خفض أصواتهم بالليل، حتى بالسعال والعطاس،

(١) : «العياشية» : ١ / ٣٠٥ و«الناصرية» : ج ٢ / ٦٦ و٦٧.

وتنزل عليهم السكينة، وتلحقهم هيبة المكان، وليس ذلك منهم مجرد استعمال، بل لما يخالط قلوبهم من هيبة المكان. قال : ولقد أخبروني أنه لا يقدر أحد منهم بليل أن يصل إلى الروضة ولطرف الحجرة والمواجهة إلى الأفراد منهم، وأنهم يسمعون بالليل قعقعة السقوف وقرقة الشبايك، حتى يظن أن أحد أبواب الحجرة فتح، أو أن بعض السقوف وقع، فلا يجدون شيئاً من ذلك، وذلك، والله أعلم، لنزول ملائكة الرحمة على قبره صلى الله عليه وسلم وقدم بعض رجال الغيب للزيارة ويظهر ذلك بالليل لهدوء الأصوات به، وخلو المكان...

فإذ كان بعد الثلث من الليل جاء رئيس المؤذنين، ففتحوا له وصعد إلى المثذنة الرئيسية، وأذن وشرع في الدعاء والذكر والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، فيقوم كل من في المسجد من الأغوات فيتوضئون، ثم يصبحون كل ما في المسجد من المصاييح، فإذا فرغوا من الإصباح، وقرب الصباح، فتحوا أبواب الحرم، ولا يأتي وقت فتحها حتى تجتمع بأبواب المسجد جماعة كثيرة من المهجدين، ينتظرون الفتح، فإذا فتحت الأبواب دخلوا مزدحمين، وتسابقوا الصف الأول من الروضة فيما بين القبر والمنبر، فن سبق إلى موضع كان أحقَّ به، فإذا أراد القيام لحاجة كزيارة أو تجديد وضوء بسط نمرة (؟) له في محله، فلا يجلس أحد فيه ولو أبطأ، وكثيراً ما يعتدي في ذلك أقوام فيدخلون مع أول داخل من غير طهارة لقصد السبق إلى الموضع وتحجيريه، فإذا بسط فيه فروته أو منديله ذهب إذ ذاك إلى الطهارة فيحجر على الناس المحل، وربما عرض لأحدهم حاجة بمنزله أو في السوق فيترك النمرة في محله ولا يقربه أحد وإن أبطأ كثيراً، وفي ذلك من الضرر على المصلين مالا يخفى، على أن دخولهم مزدحمين، واستباقهم إلى الروضة حتى ربما سمع لأقدامهم من شدة العدو دويّ سوء أدب لا يخفى...

وساداتنا الأغوات، رضي الله عنهم وجازاهم خيراً، لا يغفلون طرفة عين عن حراسة الحرم الشريف وتأديب من أساء الأدب فيه بلفظ أو رفع صوت أو نوم، ولو في قائلة إلا في مؤخر المسجد، ومن وجدوه مضطجعا من دون نوم للاستراحة، فإنّ مدّ رجله إلى ناحية الحجرة زجروه، وإن استقبل القبلة بوجهه أو الحجرة من غير أن يكون مستديراً لها تركوه، ولا يغفلون عن حضور المسجد في ساعة من ليل أو نهار، فإن خرجت طائفة جلست طائفة.

ولهم ديار وخدم وأتباع، وخيل وضياع، وسعة دنيا. ولا يشغلهم ذلك عما هم بصدد من خدمة المسجد، بل لبعضهم أزواج وسراري، اتخذوها للتلذذ بما سوى الجماع.

وأحكامهم فيما بينهم منضبطة غاية الانضباط، ولا يحكم فيهم سلطان ولا غيره، ولا يولى عليهم ولا يعزل منهم، إلا بأمر شيخهم. ولا يرث معهم بيت المال إن مات أحدهم، إنما يتوارثون بينهم. ومن وجبت عليه عقوبة منهم أو أدب أدبوه، من غير أن يكون لأحد عليهم ولاية، كل ذلك تعظيم لجانب النبي صلى الله عليه وسلم، أن تكون لأحد ولاية على عبده وخدم حجرتة الشريفة، ولا يدخل معهم من العبيد الذين يهدون من الآفاق إلا من رضوا إدخاله، بما يدفعه عنه سيده أو يدفعه هو إن كان له مال، ومع ذلك يبقى في رتبة الصغار المستغلين بالخدمة الخارجة. فإن رضوا حاله وحسنت أخلاقه تركوه حتى تأتي نوبته في الدخول في زمرة الأربعين، وإن ظهرت منه خيانة أو سوء أخلاق أو سرقة أو شيء يشينه، نفوه إلى حيث شاء من البلاد.

وبالجملة فلعبيد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وخدام مسجده جلالة قدر، وعظيم منصب، وسعة أرزاق، وكرم أخلاق، وهم أحقاء بذلك.

ولكبيرهم كلمة نافذة في المدينة، تنفذ أحكامه، وتمضي تصرفاته، في القوي والضعيف والشريف والمشروف، ويطأ عَقْبُهُ الكبراء والأشراف) <sup>(١)</sup>.

أمراء المدينة : قال في الكلام على الخطبة في المسجد النبوي الكريم : (ولم يكن يدعى في الخطبة يوم الجمعة إلا لثلاثة، أولاً — بعد الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، والترضي عن الآل والخلفاء والصحابة — للسلطان الأعظم ملك الترك، إلا أنهم يبالغون في تعظيمه بأوصاف لا ينبغي أن يعظم بها أحد من الخلق، خصوصاً بحضرة الرسالة (؟) وليس في تلك الأوصاف أحسن ولا أجل ولا أكمل من قولهم فيه : خادم الحرمين الشريفين، فأكرم بها نسبة — وقد رأيت في بعض التواريخ أن أول من وصف بذلك من الملوك في الخطبة

---

(١) : «العياشية» : ٣٠٥/١ إلى ٣٠٩.

السلطان الأجل صلاح الدين أيوب، وأنه لما قال الخطيب ذلك وسمعه سجد شكراً لله أن أهله لذلك وسماء به... ثم بعد الدعاء لملك الترك موصوفاً بكونه ملك البرّين والبحرين، والشامين والعراقين، يدعى للسلطان زيد بن محسن موصوفاً بكونه حامي الحرمين الشريفين. ثم يدعى لأمر المدينة السيد الحسين بن حماد موصوفاً بكونه حامي حمى المدينة وأميرها، على أنه — فيما يظهر — ليس له من ولاية المدينة وإمرتها إلا الاسم أو ما يقرب منها(١) لأنه من تحت أمير السلطان زيد والتصرف لنوابه وأقاربه.

وقد كانت إمرة المدينة فيما مضى والتصرف في ولايتها لبني حسين، كما أن مكة لبني حسن، وكانت تقع بينها حروب، وكانت بنو حسن لهم قوة وبطش ربما غلبوا عليهم. والآن صار الأمر لبني حسن، فجمعوا الولايتين، ولم يبق لبني حسين إلا رسوم قليلة من ولاية المدينة، وصاروا كلهم إلا القليل بادية يرحلون وينزلون بنواحي المدينة، وهم قبيلة عظيمة قوية، ليس لهم اسم إلا بنو حسين، وكبيرهم الموسوم بولاية المدينة، نازل بالمدينة، وبعض أقاربه، ولهم شارة حسنة، ومنازل رفيعة تدل على نباهة الذكر(١).

تصرف الولاة في المدينة: (وعلى طول إقامتي بالمدينة لم أدر كيف تصرف الولاة فيها، ولا من له التصرف التام بها. فإن شيخ الحرم وهو كبير الخدام تنفذ أحكامه، وكبير العسكر الساكنين بالقلعة أمير أيضاً، وابن عم السلطان زيد وزوج ابنته السيدة تقيّة النائب عنه في النظر في مصالح البلد كذلك، والأمير الذي تنسب إليه إمرة المدينة من الشرفاء الحسينيين كذلك. والحاكم الذي يسجن ويضرب ويقتل ويؤدب وهو من خُدام السلطان أيضاً، ولا أعلم هل لكل واحد من هؤلاء ولاية على القوم بالخصوص أو على عمل من الأعمال، ولم يشف لي أحد غرضاً في كيفية ذلك، ولم أبلغ في الفحص عنه، إذ لم يتعلق لي به غرض إلا مجرد العلم بالإحاطة بأخبار المدينة دينيّها ودنيويّها لحبّي لها ولساكنيها)(٢).

(١) : «العياشية» : ٣٠٩/١ .

(٢) : «العياشية» : ٣٠٩/ ١ .

نفوذ الأتراك في المدينة : وقال عن الأتراك : (بها طائفة كبيرة من عسكر السلطان، زاعمين أنهم معدون لحراستها، وفي الحقيقة إنما يأكلون مال السلطان في غير شيء فلا يغيثون ملهوفاً، ولا يردعون ظالماً)<sup>(١)</sup> .

---

(١) : «المياشية» : ١ / ٣٠٢.

## المناصب الشرعية



## المناصب الشرعية

(والحاصل أن المناصب الشرعية كلها في البلاد الشرقية حجازاً ومصرأً وشامأً من إمامة وخطابة وأذان وإقامة وقضاء، وفتوى وشهادة، بل ووقيد مساجد إنما تنال بالشراء من الولاة، فإذا مات صاحب خطة أو عزل دفع الراغب فيها مالأً للولاة فيولونه مكانه على أي حال كان من صلاحيته لذلك أم لا، فعظم الخطب على المسلمين والإسلام في ذلك خصوصأً منصب القضاء، فما رأينا ولا سمعنا في البلاد كلها بقاض يقارب الحكم بما يشبه أن يكون شرعأً، وإنما مدار أمرهم على الرضا جهارأً، فينقض الحكم الواحد في اليوم الواحد مرارأً متعددة بحسب كثرة الرشى وقلتها.. على أن بعض أصحابنا وهو الشيخ عبدالله باعيف اليمني قد أثنى على قاضي المدينة لحينه وهو القاضي مكى ثناء حسناً وزعم أنه متبع للحق جهده وأنه من أصحاب شيخنا السيد محمد باعلوي اليمني المكى، وأنه هو الذي أمره بتولية خطة القضاء والبقاء فيها بعد إرادة التنصل عنها، وغالب الناس بالمدينة على خلاف مُدعى صاحبنا هذا في هذا القاضي والله أعلم بحقيقة أمره، بَيِّدُ أن في سنة تسع وخمسين، وهي أول سنة حججت فيها، جاء إلى المدينة قاض تركي من قبل القسطنطينية، فأظهر العدل فيها غاية، وأقام الدين على الحق، وضرب على أيدي كثير من ولاة المدينة، ومنعهم من كثير من الباطل والظلم الذي هم به متصفون، فثقلت وطأته عليهم، واشتدت شكيمته على السلطان الأمير زيد بنفسه، حال بينه وبين كثير من مراداته التي على خلاف الديانة، وكان السلطان زيد قدم في تلك السنة إلى المدينة، وأقام بها مدة، فلم يزل محتالون(?) على القاضي حتى اغتيل ليلة من الليالي، وكان يأتي إلى المسجد النبوي قرب صلاة الصبح راكبأً، يصلي في المسجد، فكمن له رجل قريبأً من باب المسجد فضربه بجنبية فقطع بها أمعاءه، ففرَّ الضارب في ظلمة الليل، ولم يكن مع القاضي إلا قليل من خدامه، فأجرى فرسه من ألم الضربة حتى أتى باب المسجد، بل قيل : إنه دخل المسجد بفرسه حتى أتى وجه الوجه الشريف، فنزل وأخذ بشباك الحجر... ولم يرسل يده من الشباك حتى قبضت

روحه، وفرَّ الضارب، ولم يُدَرَّ أين توجه، حتى سمع به بمكة أو بجدة، فأظهر السلطان التأسف على موته، وأظهر التفتيش على الضارب وزعم أنه لا علم له به، ولو علمه لنكّل به وقتله، والخاصة من الناس لم يصدّقوه في ذلك، وعلموا أنه لا يقدر أحد على الجرأة إلا بإذنه، وأنه لا يخفى عليه فاعله لشدة حزمه، وعظيم مكره، وكثرة دَهَائِهِ حتى إنه لا يكاد يخفى عليه سارق شملة بأرض الحجاز كلها فكيف يخفى عليه مثل هذا؟ .

فبالله أي قاضٍ بعد هذا الشهيد يقدر على إظهار الحق والقول به في هذه الديار وما شاكلها؟! وإلى الله المشتكى.)

**العلماء في المدينة  
من أهلها ومن غيرهم**



## العلماء في المدينة من أهلها ومن غيرهم

يُغتنى الرحالون الذين يفدون إلى الحجاز — أعظم عناية — بالاتصال بعلماء الحرمين وغيرهم من الوافدين عليها، لتلقي العلم والرواية عنهم، ولهذا تعتبر الرحلات من المصادر المهمة لدارسي الحياة العلمية في مكة والمدينة.

ورحالتنا العياشي<sup>(١)</sup> من أولئك الذين حرصوا على الالتقاء بالعلماء في المدينتين الكرمتين، وقد تحدث فأوفى الحديث عمن اجتمع به منهم، ممن نكتفي بسرد أسمائهم، فمنهم: —

١ — الشيخ أبو الحسن علي بن محمد بن عبدالرحمن الربيع<sup>(٢)</sup> (؟) اليمني، الزبيدي، وهو أول من قرأ عليه في المدينة وقال عنه: (ما سمعت أن في أقطار الأرض كلها على كثرة من سمعت أحسن منه تلاوة للقرآن) وأطال في الثناء عليه، بدأ القراءة عليه في صفر سنة ١٠٧٣ بالمسجد النبوي<sup>(٣)</sup>.

٢ — الملا إبراهيم بن حسن الكوراني الشهرزوري ثم الشهراني نسبة إلى شهران من بلاد الكرب<sup>(٤)</sup> أطال الثناء عليه وأخذ عنه، ثم اجتمع به مرة أخرى وزار معه شيخه الملا محمد شريف الذي قدم للحج هذا العام ١٠٧٣.

٣ — ياسين بن محمد بن غرس الدين الخليلي أحد خطباء المسجد الحرام وأئمنه، قرأ عليه وأطال الثناء<sup>(٥)</sup>.

---

(١) : «العياشية» : ١ / ٢٨٨.

(٢) : كذا ولعله (البيع) بالدال.

(٣) : «الرحلة العياشية» : ١ / ٣١٦.

(٤) : ١ / ٣٢٠ إلى ٣٤٢ (٢٢ صفحة) و ٢ / ٢٨٧.

(٥) : ١ / ٤٤٣.

٤ — إبراهيم ابن الشيخ خير الدين الخياري، قدم والده من القاهرة إلى المدينة سنة ١٠٢٧ فتولى الإمامة والخطابة والتدريس، وخلفه ابنه بعد وفاته، قرأ عليه، وأورد شيئاً من شعره، ومنه في مدح العياشي :—

مذ لاح بالغرب الأهول فاضله  
وراح مرتضعاً ثدي العلا ناشي

عاشت معالم أرباب النُّهى وسمت  
ولا عجيب إذا عاشت بعياش

فليبق للعلم كي تبقى مدارسه  
مأهولة يقتفها الفضل الناشي

وقال العياشي :—

سبرنا العالمين فا رأينا  
كإبراهيم سيدنا الخياري

تخيِّره الزمان كما تراه  
خياراً من خيار من خيار<sup>(١)</sup>

٥ — بدر الدين الهندي النقشبندي، قدم المدينة سنة ١٠٦٨ أخذ عنه وأثنى عليه<sup>(٢)</sup> .

٦ — عبدالله عفيف اليمني، اجتمع به في الطريق من مكة إلى المدينة ثم في المدينة، وذكر أن له قصائد نبوية وفي مدح شيخه محمد باعلوي الحضرمي المكي، المتوفى سنة ١٠٧١، وأورد له قصيدة نبوية وأخرى رائية في مدح شيخه وثالثة<sup>(٣)</sup> .

---

(١) : «العياشية» : ١ / ٤٤٤ إلى ٤٤٩ .

(٢) : ١ / ٤٤٩ إلى ٤٥٣ (٤ صفحات) .

(٣) : ٢ / ٢٨٩ إلى ٢٩٧ .

٧ — أحمد بن تاج الدين : أطال الشاء عليه، وذكر عنه غرائب في علم الحساب والتوقيت، وأنه انفرد في تلك الأقطار بمعرفة علم السيميا والزيارج والحدثان (١).

٨ — محمد بن سليمان الروداني ، ولقبه بحكيم الإسلام، وأطال الشاء عليه (٢).

٩ — الملاً نافع، قال عنه : ومنهم — يعني العلماء الذين اجتمع بهم في المدينة — الشيخ المسنّ المعقولي المفسر الملا نافع العجمي، شهير الصيت عند علماء العجم، وعند أرباب الدولة، تنثال عليه صلاتهم في كل أوان، ويرون له مزية على غيره، وقد سكن المدينة مدة، وهو شيخ كبير، قد أصابته آفة في رجله، فصار يمشي على عصوين، يقرأ عليه «تفسير البيضاوي» في الحرم الشريف، ولا يحضر مجلسه إلا الأتراك، أو من كان عارفاً بلسانهم، فإنه إنما يكون يقرر باللسان التركي والفارسي، ولذلك لم أحضر مجلسه ولم أستفد منه شيئاً، والعارفون بلسانه يشنون على حسن تقريره وجودة ملكته (٣).

١٠ — محمد الفزاري — من فزارة، بلدة بين أعالي النيل وأرض السودان، استوطن المدينة ٤٠ سنة، وقال عنه : (من أقدم المجاورين وأكثرهم معرفة للأماكن التي تزار) (٤).

١١ — محمد بن علي بن عبدالقادر المالكي، أصل سلفه من المغرب، ولأسلافه في المدينة صيت، وبيتهم مشهور بالعلم، وهو أحد خطباء الحرم والمفتي المالكي، وأورد من شعره (٥).

---

(١) : ٢ / ٢ إلى ٣٠.

(٢) : ٢ / ٣ إلى ٤٦ (١٦ صفحة).

(٣) : ٢ / ٥٧.

(٤) : ٢ / ٤٦.

(٥) : ٢ / ٤٧ إلى ٥٣.

١٢ - يحيى بن الباشا الأحسائي، ووصفه بالنحوي وأورد طرفاً من شعره (١).

١٣ - ومن علماء المدينة الذين لم يأخذ منهم ولم يأخذوا عنه: إبراهيم الحجار الحنفي، عمري النسب، من مدرسي الحرم.

١٤ - الشيخ علي الضرير المالكي الأحسائي. جاور بالمدينة مدة طويلة، وله بعض معرفة بمذهب مالك. يدرس الرسالة أحياناً، وحضرت يوماً مجلسه عند المنبر النبوي، يسرد عليه «تفسير البغوي» أو «الدر المنثور» للسيوطي لا أدري أيهما لطول العهد، فلم أسمع تحقيقاً ولا تحصيلاً.

وهو رجل ذكي الطبع يكاد يحفظ كل ما يسمع، وربما هجم على إنشاء الشعر في بعض الأحيان، فتقع له أبيات تستطرف، في خلال الغشاء الذي يسيل به واديه، سمعته ينشد ذات يوم مطارحات زعم أنها وقعت بينه وبين شيخنا تاج الدين.

وقد جمعتني وإياه قافلة في رجوعنا من مكة إلى المدينة، فرأيت منه عجباً، يركب النجيب فيسير به العتق، فإذا وجد فجوة نصّ من دون سائق ولا قائد.

وأخبرني بعض أصحابنا أنه ربما يمر راكباً من المدينة على طريق الفرع، فيتقدم أمام القفل وحده فلا يخطيء الطريق مع توعرها، وكثرة شعابها، والتفاف أشجارها، فينفذ فيها نفوذ الماهر الحرّيت.

— وما رأيت قط بالمدينة وأفنيها ولا في الطواف، والسعي يحتاج إلى قائد.

ومن طالع «نكت الهميان في نكت العميان» لصالح الصفدي لا يستغرب مثل هذا من ذكائهم وفطنتهم، وناهيك بما يحكى عن الإمام الشاطبي أنه مرّ بموضع في سفرة له وهو راكب فانحنى فوق الدابة، فقيل له في ذلك. فقال : أليس ههنا شجرة؟ فقالوا : ما نرى من شجر. فقال لهم : انظروا إن لم تكن هنا شجرة فلا تشقوا بشيء مما تأخذونه عني، فإني مررت بهذا الموضع منذ

(١) : ٤٣/ ٢ - ٤٦.

عشرين سنة، وفيه شجرة، فحفروا فوجدوا عروق الشجرة وأصولها، وقد اندثرت فروعها<sup>(١)</sup>.

١٥ — محمد السوداني : من مدرسي الحرم، وهو كفيف البصر<sup>(٢)</sup>.

١٦ — محمد بن رسول الشهرزوري الحنفي، قال عنه : ذو الحسب الزكي والنسب العلي، وذكر أنه ربما درس في الحرم في فقه الشافعية<sup>(٣)</sup>.

١٧ — أحمد البرّي الحنفي : رئيس الخطباء وجمال الأدباء، وأحد الفصحاء اللسن! وذكر شعراً له حينما استعار منه جزءاً من طبقات الشافعية للسبكي<sup>(٤)</sup>.

١٨ — الشيخ مرزا الشامي الدمشقي، قال عنه : له خبرة بطريق القوم، واعتناء بجمع كتب الفن سيما مؤلفات ابن عربي<sup>(٥)</sup>.

كذا قال، وابن عربي وأمثاله ممن ابتلي بهم المسلمون، وآراء المحققين من العلماء فيه وفي مؤلفاته معروفة.

١٩ — عبدالله بن نُمَيّ العمودي اليمني، وصفه بالعبادة والتصوف.

٢٠ — حسن البرّي، ذكر أنه كان يجلس في الروضة فيجتمع إليه جماعة من العوام والطلبة، وذكر أنه سمعه يشرح حديث «إن الله يضحك إلى رجلين» الخ ومثّل لذلك بوحشي.

وقد كتب عن هذا منتقداً، وقال إنه لم يذكر ذلك له ولا لأحد من أصحابه خشية أن يظن به استراق السمع في مجلسه والتطلب لعوراته<sup>(٦)</sup>.

---

(١) : «الرحلة العياشي» ٥٦/٢.

(٢) : ٥٧/ ٢.

(٣) : ٥٧/ ٢.

(٤) : ٥٨/ ٢.

(٥) : ٨٥/ ٢.

(٦) : ٨٨/ ٢.

٢١ — جمال الدين النقشبندي، وصفه بكونه شيخه وأنه لقيه بمكة، وذكر أنه توفي سنة ١٠٧٦ ودفن بالبقيع. بلغه خبر وفاته وهو في المغرب (١).

٢٢ — الملا محمد شريف ابن القاضي يوسف بن محمد الصديق الكوراني، من العلماء الذين اجتمع بهم وأجازوه، وهو شيخ أستاذه إبراهيم بن حسن الكوراني (٢).

### عناية العياشي بوصف الكتب :

الكتاب هو أداة العالم، ووسيلته التي تنمي علمه، ولهذا فليس غريباً أن يعنى العياشي بوصف ما يطلع عليه من نواذر الكتب.

قال في كلامه على قرية وآلى (٣) :

وقد وجدنا في روضة محمد بن موسى الصالح المدفون في تلك القرية ، سفيراً من نوازل البرزلي بخط الإمام ابن مرزوق، وقد أفسد القطر جانباً منه، ومعه إجازات لبعض السادة القادرية بخط مشرقى، وتعجبنا من وصول ذلك إلى هذه القرية، وما نظنه إلا من كتب سيدي محمد بن إسماعيل (٤) ، فإنه لما مات بتكورادن سنة ١٠٦٤ خلف كتباً كثيرة، وأوصى بها لخادم الروضة النبوية. وبقيت كتبه هناك مدة ثم حملوها إلى القليعة فارّين بها، لما بلغهم أن متولي البلد يتحدث بأخذها، ولم تنزل هناك إلى أن ذهب سيدي علي ابن الشيخ الحفيان للحج بعد ذلك بسنين فبعثوها معه، وضاع كثير منها بسبب ذلك، وقد رأيت بعضها بالمدينة الشريفة ورأيت زمام ما وصل منها، وليس يشبه ذلك. وقد أخبرني بنفسه رحمه الله قبل موته بسنة، لما لقيته بفجيج أن كتبه تبلغ قريباً من ألف وخمسمائة تأليف، الذي بلغ منها إلى المدينة المشرفة نحو مائة وسبعين سفيراً، رأيت منها جملة كثيرة. وهي كتب نفيسة جداً، اقتنى أكثرها لما كان بمدينة اصطنبول اشتراها له الوزير الأعظم... لما قال له : إن بهذه المدينة كتباً نفيسة

(١) : ٩٠/ ٢

(٢) : ٢٨٧/ ٢

(٣) : في الهامش : وهي بين أو جرت ونفزاوة.

(٤) : في الهامش : (محمد بن إسماعيل الكوراني).

وليس لي ما أحصل به أمنيته منها. فبعث دلائل الكتب وقال له : كل مايقع بيدك من الكتب فاعرضه على هذا الشيخ فاستحسن منها فاتركه له، وخذ الثمن من عندي لأربابه، فلم يزل ذلك دأبه مدة إقامته هناك<sup>(١)</sup>.

وقال أيضاً : وما أتلفه هذا السيل (سيل ٩ شعبان سنة ١٠٧٣) الذي دخل المسجد الحرام بمكة، خزانة من الكتب لشيخنا أبي مهدي عيسى الثعالبي، كانت في المسجد على وجه الأرض، ولها باب مفتوح إلى المسجد بين باب حزورة وباب إبراهيم... أتى عليها الماء كلها ولم يسلم منها شيء، وكانت نحو ثمانين سفراً، فيها من نفائس الكتب وغرائبها التي لا تكاد توجد في غيرها. ما أكثر أسفه عليها بعد ذلك، فأمر بها، فحفرت لها حفرة في الأرض ودفنت فيها، وكان منها أجزاء من المدونة الكبرى التي هي أم الدواوين الفقهية ولم يسلم منها شيء، وكثر أسفي على عدم رؤيتها لغرابتها، وتكون أكابر الفقهاء من قبل هذه القرون لم يظفروا منها بشيء، وأظن أنه أخبرني أنه وجد المذكورة في خزانة رباط الموفق وأنها كانت بيد الإمام الخطاب . ومنها الأجزاء عيون الأدلة لابن القصار، وكان يثني عليه كثيراً في بسط أدلة المذهب والانتصار له والرد على المخالفين، مع التحقيق التام، إلى غير ذلك من الكتب منها ما هو ملكه، ومنها ما هو من كتب الوقف<sup>(٢)</sup>.

رحلة ابن رُشيد<sup>(٣)</sup> : اطلع عليها ونقل عنها وقال : (نقلته من نسخة عليها خطه وإجازته لتلميذه صاحبه عبدالمهيمن الحضرمي رحمه الله، ورأيت هذه النسخة بمكة المشرفة عدة أسفار. وذكر في آخرها أنه استخرجها من مسوداته بعد عشرين سنة من رجوعه بسؤال عبد المهيم المذكور منه ذلك قال : بعد ما كنت أغفلت ذلك وأعرضت عنه لقلة من يرغب فيه. فإذا كان الناس في زمانه لا يرغبون في جمع فوائد المرتحلين سيما مثله في ضبطه وإتقانه وكثرة جمعه، فما بالك في زماننا هذا الذي عم فيه الفساد، وغلب على بضاعة العلماء، ولا يسمع من فوائد الرحلة

(١) : «العياشية» : ٤٠/ ١ بتلخيص.

(٢) : «العياشية» : ٩٧/ ٢.

(٣) : نشرت «العرب» كل ما يتعلق بالحجاز منها.

إلا ما كان أسماراً، وصارت صلة الأدب فيه أطماراً، فالمشتغل بجمع ذلك مثلي، أو من هو على شكل، ليس في الرأي ذا أصالة، إن لم يجعل ذلك عوضاً عن البطالة<sup>(١)</sup>.

وقال أيضاً عن رحلة ابن رُشيد :

رأيت منها عدة أجزاء بمكة عند شيخنا أبي مهدي، وكانت في وقف المغاربة برباط الموفق، وعلى هذه النسخة خط المصنف في أماكن، وخط تلميذه الإمام عبدالمهيمن الحضرمي، وكانت النسخة ملكاً له.

ثم لخص منها فوائد<sup>(٢)</sup>.

منتهى السؤل من أمداح الرسول صلى الله عليه وسلم : رأيت بمكة سيفراً في الغالب الكثير من أمداح النبي صلى الله عليه وسلم، قال كاتبه في آخره : كُمل السفر التاسع من كتاب منتهى السؤل من مدح الرسول. وذلك في أوائل ربيع الآخر عام ٦٧٣ وكتب محمد بن أبي القاسم بن أحمد بن عبدالرحمن الأنصاري، قلت : وهذا التأليف لم يقصد به جامعه جمع كلامه أو كلام مخصوص، بل ما انتهى إليه من الأمداح النبوية وما شاكلها، والله أعلم كم بقي لتمام الكتاب.

ومن جملة ما في هذا السفر : المعلم الرابع من كتاب الدرّة السنية في المعالم السنية، وهو في السيرة النبوية والأعلام المحمدية، للقاضي أبي عبدالله محمد بن عيسى بن محمد بن أصبغ الأزدي، وذكر في آخره أن عدد أبيات الكتاب سبعة آلاف بيت من الرجز، وأنه أنشأه بقرطبة سنة ٦١٤ في أشهر، آخرها مستهل صفر من السنة المذكورة. والمعالم الثلاثة لا أدري فيما هي؟

ومن جملة ما في هذا السفر، وهو نحو النصف كتاب اللآلى المجموعة من باهر النظام، وبارع الكلام، في صفة مثال نعل رسول الله عليه الصلاة والسلام. مما انتدب لجمعه رجاء نفعه عبدالله بن محمد بن هارون الطائي القرطبي، وسبب

(١) : ٢٢٨/ ١

(٢) : ٢٤٠/ ٢ إلى ٢٥٦.

جمعه — على ما قال — : أنه سئل منه نظم أبيات تكتب على النعل المشرفة فكتب في ذلك قطعة، وندب أدباء قطره الأندلس لذلك فأجابوا، وكتب من ذلك ما وصل إليه، وجملة ما فيه من المقطعات ينيف على مائة وثلاثين بين صغيرة وكبيرة. قلت : ولم يطلع على هذا التألف شيخ مشايخنا الحافظ أبو العباس المقرئ مع سعة حفظه وكثرة اطلاعه، ومبالغته في التنقير والتفتيش عما قيل في النعل، ولم يطلع لمن قبل عصره إلا على عدد أقل من هذا بكثير، وغالب ما أودعه في كتابه «فتح المتعال في مدح النعال» كلامه وكلام أهل عصره، ولو اطلع على هذا الكتاب لاغتنب به كثيراً<sup>(١)</sup>.

تاريخ الإسلام للذهبي : قال عنه : (وما رأيته من الكتب الغربية بمكة المشرفة تاريخ الإسلام للحافظ الذهبي، وهو عشرة أجزاء كبار على السنين من أول الهجرة، فجعل كل عشر سنين طبقة، فصار سبعين طبقة، إلى آخر المائة السابعة، وهو كتاب حافل لم يدع شاذة ولا نادرة مما تشوق إليه النفس من علم التاريخ إلا أودعها كتابه مع الاختصار والإتقان، فكأنها جمعت له الدنيا وأهلها في صعيد واحد، وهو موجود في وقف قايت باي بمكة في رباطه المعروف. وقد رأيته منه أجزاء وطلعت بعضها، وما قيدت من بعضها<sup>(٢)</sup> :

طبقات الصوفية للمنوي : قال : ومن الكتب الغربية التي رأيته بمكة طبقات الصوفية للمنوي.. وقد أجاد فيها.. سيبا للمتأخرين من الصوفية فلم أر أخبارهم مستوفاة في غيرها<sup>(٣)</sup>.

القوانين لابن أبي الربيع : قال : وما رأيته بمكة، القوانين لابن أبي الربيع في علم النحو، وما قيده منها<sup>(٤)</sup> :

(١) : ٢ / ٢٥٦.

(٢) : ٢ / ٢٥٧ إلى ٢٥٨.

(٣) : ٢ / ٢٥٨ إلى ٢٥٩.

(٤) : ٢ / ٢٥٩.

كتاب الجفر الكبير الذي قل أن يوجد في الدنيا. رآه عند الشيخ أحمد بن تاج الدين، في المدينة، ولخصه (١) .

عنقاء مغرب ومعرفة فتح الأولياء وشمس المغرب لابن عربي قال : إنه استعاره من الشيخ مرزا الشامي الدمشقي في المدينة، وهذا الشيخ جمع من كتب الفن كثيراً سيما مؤلفات ابن عربي فله بها اعتناء، وقال عن الكتاب : (ما رأيته قبل ولا بعد إلا عنده) (٢) .

١ — الخلفيات واسمها : «الفوائد المنقاة الحسان من الصحاح والغرائب» تخريج أبي نصر الشيرازي من أصول سماعات القاضي أبي الحسن علي بن الحسن بن الحسين الخلعي، وهي عشرون جزءاً، سمعها على شيخه الثعالبي (٣) وانتقى منها.

٢ — أربعون حديثاً عن أربعين شيخاً لتقي الدين الفاسي مؤرخ مكة (٤) .

٣ — شكاية أهل السنة بحكاية ما نالهم من المحنة لأبي القاسم القشيري، رواها عن شيخه وأوردها ملخصة (٥) .

(١) : ٢ / ٢ إلى ١٧ .

(٢) : ٢ / ٨٦ .

(٣) : ٢ / ١٣٩ إلى ١٦١ .

(٤) : ٢ / ١٣٩ .

(٥) : ٢ / ١٦١ إلى ١٦٧ .

**المقارنة بين**

**أهل مكة وأهل المدينة في التحضر واللباس**



## المقارنة بين أهل مكة وأهل المدينة

### في التحضر واللباس

وقال : وسألت شيخنا الثعالبي عن سبب إثارة سكنى مكة فقال : إن أهل هذه المدينة قد تحضّروا، وغلب عليهم طبعُ الأعجام، ورفاهيتهم وإسرافهم، وتشبّهوا بهم في ملبسهم وفي غالب أحوالهم، وأنا امرؤ مسكين فقير، أخاف أن ينشأ أولادي وأزواجي، ويتطبّعوا بطبعهم في ذلك، بخلاف أهل مكة، فإنهم لم يزالوا على أعرابيتهم واستعمال البداوة، وعدم المبالاة والاعتناء في الملبس والمأكّل، قد غلبت عليهم البداوة، وكثرة مخالطتهم لأهل البادية، وسكنائهم بها حتى أمراؤها من الأشراف فإن غالب سكنائهم بالبادية، وإن كانت لهم منازل بمكة، ومن وُلد له مولود منهم استرضع له عند العرب بالبادية، فلا يأتي به حتى يقارب الحلم. ولباس الملك وأولاده وبني عمّه وإن كان في غاية الرفعة واللطافة فإنه على زيّ لباس العرب في تَعَمُّيهِمْ وَتَقَمُّصِهِمْ، فيلبسون العمام القصار، ذوات الأهداب الطويلة، ويرسلون لها العَدَبَة إلى قريب من ذراع، ويلبسون الدشوت(؟) الرفيعة إلا أنها على هيئة دشوت الأعراب، ولا يلبسون الجوخ التي تلبسُها العجم، ولا الأقبية التي هي على زيّهم. ويلبسون النعال ذات السُيُور التي على ظهر القدم دون السرموجة التي تلبسها الأعجام.

وعلى كل حال فأهل مكة قد غلبت البداوة على جميع شؤونهم، وظهرت فيهم، دون أهل المدينة، ولذلك قَلَّ سُكْنَى الأعجام بها إلا القليل، لأنها وطن السلطان وأولاده وأقاربه، ونفوسهم لا تنقاد لذلك وجريان الأحكام عليها في كُلِّ وَرْدٍ وَصَدْرٍ، مُشْتَرِضُونَ من سكنى مكة، ويميلون إلى المدينة، لكون عسكر التُّرك بها، وهم جنسهم، وأحكام السلطان وإن كانت نافذة هناك أيضاً لكنها بعيدة منه، فليست كمحل وطنه.

أخبرني بهذا من سَبَر حال البلدَيْن وعلمه، زيادة على ما رأيته أنا من ذلك.



**العودة من المدينة إلى مكة**



## العودة من المدينة إلى مكة

قال : (وتهاً خروجنا من المدينة المشرفة ضحى يوم الثلاثاء (١٧ من شعبان)، وقطعت المسافة إلى ذي الحليفة راجلاً، فوجدنا القافلة بذي الحليفة ونزلنا هناك إلى أن قرب العصر فارتحلنا.

وهالني الركوب في الشدق لأني ما عهدته قبل، وعادلني في الجانب الآخر أخي عبدالرحمن، ولم أستأنس ركوبه إلا بعد مدة، وكان يخيل لي إذ صرت في جنب البعير أن الجانب الذي أنا فيه قد مال للسقوط، وكذلك كان يخيل لصاحبي حتى تمرّنا به فكنا ننام فيه ما شئنا، وقد أرجلنا ونضطجع كيف شئنا، وسرنا غالب تلك الليلة منفردين عن القافلة لم نلحق من قبلنا ولا لحقنا من بعدنا... إلى أن وجدنا القافلة في بطحاء الفريش، فلنا عن الطريق قليلاً وأخذنا تحت سمره<sup>(١)</sup>.

وصف الشدق : قال : (ولما انتصف شهر شعبان تأهبنا للسفر، واكثرنا جلين بثلاثة عشر قرشاً، واتخذنا لركوبنا شقداً<sup>(٢)</sup> وهبه لنا شيخ الأغوات آغا سليم.. وهو محمل كبير ما رأيت له إلا في أرض الحجاز، ذو شقتين توضع كل واحدة على جنب البعير، ويقرن بينها بحبال وثيقة على ظهره، ولا بُدُّ للراكب فيه من معادل له في الجهة الأخرى، مقارباً له في الرزانة، ثم يوصل بين الشقتين من أعلى بحبال يظل عليها بغطاء يقي الحرَّ والبرد، وهو من أشهى المراكب وأهناها، سيما لمن له فرش وثيرة ووسيدة يتكىء عليها من الجانبين، فإنه لا يكاد يحس بأن الإبل تسير به، فقد رأينا من اعتاد الركوب فيه ينام من أول الليل إلى آخره ولا يستيقظ إلا بإناخة الجمل عند النزول، وقد لا يستيقظ)<sup>(٣)</sup>

كراء الرواحل : ومن عاداتهم في أكرية الرواحل من القوافل الذاهبة إلى مكة والينبع، أن... بالمدينة رجالاً يعرفهم غالب الحمالين، فن احتاج الكراء

(١) : «العياشة» : ٩٢/ ١.

(٢) الشدق من المراكب القديمة كالهودج، وقد ورد وصفه في رحلة التيجيبي.

(٣) : «العياشة» : ٩٢/ ٢.

من أرباب الدواب وأرباب السلع أتى إليهم، فيعقدون له الكراء مع صاحبه، ويتكفلون بما عسى أن يصدر من الجمال من غدر في الطريق بهروب أو مكر، ويسمى أحد هؤلاء المُخَرَّج، فلا يعقد أمر كراء إلا بحضرة أحدهم.

وجلسهم في الغالب بباب المصري، ويأخذون بذلك حلاوة من الجمال ومن المكري، وذلك دأبهم بمكة<sup>(١)</sup>.

طريقة السير : — لم نعتد المشي في الليل كما هو شأن أهل تلك البلاد، فإن سيرهم بالليل، لا يحملون الإبل من السير إلا ما سمحت به أنفسهم عن اختيارها، فيتركونها تمشي على مهل بلا سائق، وذلك الذي أعانهم على قطع تلك المسافات بضامر إبلهم مع هزالها وضعفها.

وكما وصف العياشي الإبل في الحجاز هذا الوصف، فإنه قد وصف وسيلة الركوب الأخرى وقد سار عليها من مكة إلى جدة فقال<sup>(٢)</sup> :

ولم أر أسرع شيئاً من حمر الحجاز ولا أوطأه مركباً، ولا أقلّ تعباً مع السرعة المفرطة في المشي، فلقد كنت أنظر وأنا راكب إلى أطرافي هل يتحرك منها شيء مع الإسراع في المشي، فلا يكاد يتبين لي حركة شيء منها، مع أن مركوبي ليس من أجاودها. فلقد أخبرت أنه كان حمار عند رجل من أهل مكة يصلي المغرب بجدة فيركب عليه ويصلي الصبح بمكة، وهي مسافة القصر تحقياً، وهم يتغالون في ثمن ما هذه صفته منها، فيبلغ الحمار مائة دينار ذهباً. وقد رأيت حماراً عند فقيه الحنفية الشيخ الزنجبيل رافقنا عليه من المدينة إلى مكة، تقطعته العين، فأخبرت أنه اشتراه بقريب من ذلك الثمن<sup>(٣)</sup>.

وقد وصف المواضع التي مرَّ بها وصفاً لا يخرج عما وصفها به حين قدومه إلى المدينة. ومن ذلك :

البزوة : ثم ارتحلنا بعد الزوال من بدر، ونزلنا دور<sup>(٤)</sup> الخبت، قرب السبيل الأول الذي بالبزوة في وسط الليل، ووجدنا البزوة مخصبة كأنها بستان.

(١) : «العياشية» : ١ / ٣٠١.

(٢) : «العياشية» : ٢ / ٩٣.

(٣) : «العياشية» : ٢ / ١٠٤.

ثم ارتحلنا منه غداً قرب الزوال ونزلنا قرية مستيرة (١) قرب الصباح،  
ووجدنا البطيخ بها أرخص ما يكون حتى اشترينا خمسة بمحلق (٢) .

رابع : ونزلنا رابع.. ووجدنا السيول قد اجتاحت أكثر منازل أهله، وذهبت  
بمزارعهم وهذت الجانب الذي فيه المنارة من مسجدهم، وأفسد الطريق، وتعبنا  
في قطع الوادي.

ثم ارتحلنا منه، وغوى أهل الرفقة عن الطريق في الرمال التي بينه وبين  
قُدَيْد، ونزلنا آخر الليل عند السبيل الذي هناك، ووجدنا به قهوة وقوماً يبيعون  
العلف والحجرب، ثم ارتحلنا منه ومررنا بقديد (٣) .

عُسْفَان : ثم ارتحلنا من خُلَيْص ومررنا بعسفان وسط الليل، وعندما مررنا  
بالثنية التي تهبط من خلوص على عسفان، تنسّمنا نسيماً طيباً وعرفاً ذكياً،  
استنشقه كل من معنا من راكب وراجل. وقلنا لمن معنا من العرب : ما هذا  
الشذا؟ فقال : عرف الحزامي، فإن منبتها في هذا المحل كثير. فسألت أحداً منهم  
وناولني ضغثاً منها فإذا هونبت له زهرة وعَرْفٌ ذكي، من أذكى مشموم شممناه  
في تلك البلاد...

وعند قرية عسفان فارقتنا من الربع (٤) — وهي القافلة بلقتم — من أراد  
الذهاب إلى جدة، فعدلوا يميناً ودخلوا في إحدى تلك الشعاب التي بيمين  
القرية.

برقة : مررنا عسفان وسط الليل... ونزلنا آخر الليل بمحل يسمى برقة،  
دون السبيل الذي هناك، فيه رمال ذات أشجار، بين تلك الرمال تلاع تمرُّ بها  
السيول، فيها مزارع ومقاثي كثيرة، تجلب منها إلى مكة وإلى جدة ومن الظهران  
وتسوقنا العرب هناك بالحجرب الكثير الحلو الفاخر.

ثم ارتحلنا من هناك ونزلنا مرّ الظهران آخر الليل.

---

(١) كذا تكرر اسم مستورة.

(٢) : «العياشية» : ٩٤/ ٢ .

(٣) : «العياشية» : ٩٤/ ٢ .

(٤) الربع هم المرافقون والمصاحبون أي كانوا.

الوصول إلى مكة : (ليلة الأحد ٢٩ شعبان).

ارتحلنا من مَرَّ الظهران بعد الزوال ودخلنا مكة المشرفة بعد ما ذهب ثلث الليل، وكنا حرصنا على دخولها نهاراً، فأبى من معنا من العرب، لأنهم كانوا يخافون من أخذ الأمير إبلهم يحملها إلى المدينة، فإننا وجدنا ولده في طائفة من العسكر بذي طوى، وقد أخرج مضاربه وخيامه إلى هناك برسم إلى المدينة.

وأخنا في سوق باب إبراهيم بالسفحة (٩) التي أمام رباط الموفق الذي هو معدٌ للمغاربة. ثم حملنا أمتعتنا إلى دار نزلنا بها وراء سوق الشامي من ناحية الباب الذي يلي دار الندوة قريباً من جبل قعيقعان في مكة المكرمة.

### الرجوع إلى المدينة ثم العودة :

أقام الرحالة العياشي في مكة حتى انتهى الحج، ثم رجع إلى المدينة (١).

في المدينة مرة أخرى : خرج من مكة ١٨ ذي الحجة سنة ١٠٧٣ فوصل المدينة ليلة ٢٩ منه. قال : (ولما وصلنا وجدنا أبواب المدينة مغلقة فطرحنا أمتعتنا بالمناخة قرب مسجد العيد، ونزل في مقام إسماعيل بن جعفر الصادق.

وأقام في المدينة خمسة أيام، وسافر يوم الخميس الثاني من محرم سنة ١٠٧٤ (٢).

من المدينة إلى ينبع : ارتحلنا صباحاً من ذي الحليفة، وأخذ الناس السير، ولم يقيّلوا إلا سويعة قدر ما أكلوا قريباً من الفريش، ومررنا بشرف الروحاء قبل المغرب، ولم نبت إلا قرب منصورف الروحاء.

وفي الغد ارتحلنا ومررنا بمسجد الغزالة، وسرنا حتى نزلنا بالجديدة بعد ما اشتدت القائلة، ووقف الناس بها هنيئة ريثاً أخرجوا أمتعتهم التي اختزنوها، فارتحلوا ولم ينزلوا إلا قرب الصفراء حيث تنصرف الطريق ميمناً إلى ينبع....

(١) : ٢ العياشي : ٩٤.

(٢) : « العياشي » : ٢ / ٢٨٧ - ٢٩٧.

وفي الغد ارتحلنا وملنا يميناً مع شعاب متوعدة، وعند المنصرف قبر يقال إنه قبر عبيدة بن الحارث سيد شهداء بدر، أحد البارزين في ذلك اليوم، وزرناه وسرنا إلى قريب من الظهر، فوصلنا بسيط الدهناء، ووجدنا البركة المعمولة هناك ممتلئة ماء، ووقع شأن بين المغاربة الأفريقيين والجوانيين، ولم ينزلوا حتى كاد يبدو لهم نخيل ينبع... وما سرنا قط مثل هذه المراحل طولاً إلا أن الله لطف بالركب فلم يروا محارباً ولا سارقاً<sup>(١)</sup>.

من ينبع إلى صحراء سينا : لم أرفأ قرأت من رحلة العياشي في وصف الطريق من ينبع إلى صحراء سيناء ما أراه يضيف جديداً في تحديد المواضع التي مرَّ بها، سوى ما نقله عن رحلة ابن رشيد الفهري الأندلسي، وهي رحلة قد نقلتها ونشرت ما يتعلق منها بالحجاز في مجلة «العرب» غير أن في المخطوطة التي نقلت عنها كلمات غير واضحة أشرت إلى مواضعها. وها هو ما نقله العياشي من تلك الرحلة مما يتعلق بوصف هذا الطريق، مع ما يضيفه العياشي:

ينبع : قال ابن رُشيد : ولما وافينا ينبع خرج مغنون بأصوات طيبة عذبة، يرددون هذه الأبيات، ويحيون بها القادمين، ويحيون نفوسهم الميتة بطيب تلك النغمات :

أيها القادمون أهلاً وسهلاً  
كيف نجد؟ وكيف بان الصلّى

كيف خلّفتكم العقيق وسلعا؟  
وقبا والنقا ومن ثمّ حلا؟

فأجابوا : لله ما كان أهنأ  
زمن الملتقى، وما كان أحلى!!

قال ابن رشيد : لله درهم حادوا عن الجواب، لما رأوا أنهم لا عذر لهم في الإياب.

(١) : «العياشية» : ٢ / ٢٩٨.

وينبُع عن يمين رضوى لمن كان منحدرًا من المدينة إلى البحر، روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى في مسجد ينبع، وهو من حديث محمد بن عمر بن أبي طالب رضي الله عنه.

قلت : يفهم من قول ابن رشيد : لله درهم الخ أن (كَيْفَ) في كلام السائل للإنكار والتوبيخ عن الرجوع من تلك الأماكن، وكيف طابت نفوسهم حتى خلفوها؟ وليس في الكلام ما يدل على ذلك، بل يمكن أن تكون للسؤال حقيقة عن تلك الأماكن على وجه التحسُّر والتحرُّن والاشتياق إليها كالتي قبلها، وإذا كان كذلك، فالجواب مطابق، لأنه إخبار بما يزيد في شوق السائل وحنينه إلى تلك المعاهد.

وأما مسجد ينبع فقد ذكر السيد السمهودي أنه من المساجد التي صلى فيها النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه مسجد القرية التي ينزل بها الحاج. وقد ذكر أهل السير أن النبي صلى الله عليه وسلم وصل إليها في إحدى غزواته.

وأما الأبيات المتقدمة فقد اشتهرت بين أدباء المغرب في قرب ذلك العصر، وعارضها بعضهم، وذُيل عليها آخرون، ومن ذيل عليها الأديب البارع أبو بكر محمد بن يوسف بن الحسن بن حبيش اللخمي الزاهد نزيل تونس، المتوفى بها سنة ٦٨٧. قال العزمي (؟) بعد التعرف به، وذكر جملة مستكثرة من نظمه ما نصه : وأنشده بعض حجاج المغاربة هذه الأبيات — فذكرها وذكر أنه سمعها بالبقيع (؟) وسأله أن يزيد عليها فقال رحمه الله :

حيث روض النعيم بالأنس يجنى  
وعروس السرور بالسعد تجلّى  
— ثم أورد ٢٦ (ستة وعشرين) بيتاً بعد هذا وقال : ثم أطال فيها، وهي كلها سَلْسَة غريبة المناحي، رائعة الألفاظ، عذبة المعاني (١).

المغيرة : قال ابن رشيد : ووافينا من ينبع المغيرة، ماء يحتفر في أحساء. وضبط هذا الاسم مَفْعَلَةً — بفتح الغين من التغير. انتهى.

(١) : «الرحلة العياشية» : ٢ / ٢٤١ - ٢٤٢.

قلت : والماء المذكور يسمى في هذه الأزمان نَبْط، وما ذكر في ضبطه إن كان من التغير — كما قال — فيكون مفعلة بفتح الغين المعجمة وتشديد الياء اسم مفعول، والذي ينطق به الكافة في أمثالها — وهي كثيرة — مُغَيَّرَة بفتح الغين المعجمة، وياء ساكنة خفيفة تصغير مغارة — من الغور وهو الأنسب بالأمكنة المسماة بهذا الاسم والله أعلم<sup>(١)</sup> .

مغارة شعيب : قال ابن رشيد : مغارة شعيب هي ماء مَدِين، بلد جذام، يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لوفد جذام : «مرحباً بقوم شعيب وأصهار موسى، ولا تقوم الساعة حتى يتزوج فيكم المسيح ويولد له» .

ومدين الذي سميت به أحد بني وائل من جذام<sup>(٢)</sup> .

القباب : قال ابن رشيد : ورحلنا من نخيل ضحى يوم الأربعاء إلى موضع يعرف بالقباب، وافيناه ضحى يوم الخميس، فيه مصانع للماء كثيرة، في جباب مَقْبُوءَة، وفيه غدر.

وأنشد في وصف تلك الليلة :

ليل كأنَّ مداه عكس أحرفه  
ليل، وليل، فلا طول ولا قصر

قال العياشي : ولا أثر لشيء مما ذكر من المصانع والجباب في وقتنا هذا في الطريق التي يسلكها الحاج في تلك الناحية، وأما البيت الذي أنشده، فليتأمله العارف بمقاصد البلغاء، هل يدل على طول الليلة وشدتها أو حسنها واعتدالها، وهو إنما ساقه مساق الدلالة على طولها وشدتها، ولم يتبين لي الآن وجه ذلك<sup>(٣)</sup>

(١) : «الرحلة العياشية» : ٢ / ٢٤٣ .

(٢) : «العياشية» : ٢ / ٢٤٣ .

(٣) : «الرحلة العياشية» : ٢ / ٢٤٣ .



# فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة
تقديم	٥
الرحلة ومؤلفها	٧
في الطريق إلى مكة	١٣
البركة	١٥
الدار الحمراء	١٦
عجروء	١٦
النابعة	١٧
وادي الخروب	١٨
التيه	١٨
النخيل	١٩
بر الصعاليك (بئر البارود)	٢١
عرقوب البغلة — سطح العقبة	٢١
العقبة	٢٢
حفاير النخل — ظهر الحمار	٢٤

٢٤	شرفات بني عطية — عش الغراب
٢٥	غريبه
٢٥	أبو العظام
٢٥	مغاير شعيب (مدين)
٢٦	عيون القصب
٢٦	المويلح
٢٨	دار أم السلطان
٢٨	شق العجوز
٢٩	قبر الكفافي — الأزم
٢٩	إصطبل عنتر
٣٠	وادي الأراك — الوجه
٣١	أكرة
٣١	بين الدركين
٣٢	العقبة السوداء
٣٢	الخوراء
٣٢	وادي العقيق
٣٣	النبط

٣٣	..... وادي النار
٣٣	..... الحضيبة
٣٤	..... الوعرات
٣٤	..... الينبوع (ينبع)
٣٥	..... جبل رضوى
٣٦	..... السقائف (دار الوقدة) :
٣٧	..... بدر
٣٧	..... لطيفة
٤٠	..... مسجد الغمامة
٤٠	..... البرزء
٤٠	..... سبيل محسن
٤١	..... مستورة
٤١	..... رابغ
٤١	..... الرمال
٤٢	..... هرشى
٤٢	..... قديد
٤٢	..... المشلل

٤٢	..... عقبة السكر
٤٢	..... خليص
٤٣	..... ثنية عسفان
٤٣	..... عسفان
٤٤	..... برقة
٤٤	..... وادي العميان
٤٤	..... مرّ الظهران
٤٤	..... سرف
٤٥	..... التنعيم
٤٥	..... الزاهر
٤٥	..... ذو طوى
٤٧	..... في مكة المكرمة
٥٠	..... الأمن في مكة
٥٠	..... الحرّ في مكة
٥١	..... صفة البيت العتيق من داخل
٥٢	..... أوقات فتح البيت
٥٣	..... جوّ مكة

٥٣	..... الآثار في مكة المكرمة
٥٣	..... جبل حراء
٥٤	..... غربية
٥٤	..... غار جبل ثور
٥٦	..... دار المولد
٥٨	..... مولد فاطمة
٥٨	..... المودع
٥٨	..... رباط عبدالقادر الجيلاني
٥٨	..... مسجد الجنّ
٥٨	..... مقابر مكة
٦٠	..... قبر عمر العربي
٦٠	..... جبل أبي قبيس
٦٠	..... مولد عمر
٦٠	..... دار الأرقم
٦٠	..... حجر المرفق
٦٣	..... الآثار في منى
٦٥	..... المييت بمنى قبل الوقوف

٦٥	وصف الموقف النبوي بعرفة .....
٦٦	وادي إلثَّار (محسر) .....
٦٦	في منى أيام التشريق .....
٦٧	وصف سوق منى .....
٦٧	ذبائح منى .....
٦٧	المنازل في منى .....
٦٨	الليلة الثانية في منى .....
٦٨	مسجد العقبة .....
٦٨	مسجد الخيف .....
٦٩	مسجد النحر بمنى .....
٦٩	مسجد الكبش .....
٦٩	انتهاك المساجد والمزارات خارج مكة .....
٦٩	التعجل من منى .....
٧٠	وصف منى قبل نزول الحجاج .....
٧١	بعض من اجتمع به من العلماء في مكة .....
٧٥	بعض عادات أهل مكة .....
٧٨	من عادات أهل مكة .....

الشریف زید بن محسن (حاكم الحجاز	
من سنة ١٠٤١هـ — ١٠٧٧هـ)	٨١
الأمن في عهد الشریف زید بن محسن	٨٧
المكوس على الحجاج	٩٠
الجعرانة	٩٣
مدينة جدة كما وصفها العياشي	٩٧
بلدة الطائف كما وصفها العياشي	١٠٥
في الطريق إلى المدينة المنورة	١١٥
المكارون من عرب الحجاز	١١٧
عنزة في طريق المدينة	١١٧
العرب والركب الشامي	١١٧
الجهل والفقر هما أصل الداء	١١٨
من مكة إلى المدينة	١٢٠
الطريق من مكة إلى المدينة	١٢٠
وادي الشریف (مر الظهران)	١٢٢
عسفان	١٢٢
خليص	١٢٢
قديد	١٢٣

السبيل بين قديد والجحفة .....	١٢٣
رابع .....	١٢٣
سبيل محسن في البرزء .....	١٢٣
مسترة (مستورة) .....	١٢٣
بئر الملاء نافع .....	١٢٤
الجديدة .....	١٢٥
النازية .....	١٢٥
عرق الظبية .....	١٢٦
الروءاء .....	١٢٦
شرف الروءاء : قبور الشهداء .....	١٢٦
الفريش .....	١٢٧
مُفَرَّج .....	١٢٧
في المدينة المشرفة .....	١٢٩
في الحرم الشريف .....	١٣٢
مساجد المدينة وآثارها .....	١٣٤
البقيع .....	١٣٤
مساجد المدينة .....	١٣٤
مسجد قبا .....	١٣٤

١٣٥	مسجد الجمعة
١٣٥	مسجد الفضيح
١٣٥	مسجد بني قريظة
١٣٦	مسجد مشربة أم إبراهيم
١٣٦	مسجد بني ظفر
١٣٦	مسجد الإجابة
١٣٦	مساجد الفتح
١٣٧	مسجد القبليتين
١٣٧	مسجد السقيا
١٣٧	مسجد ذياب
١٣٨	كهف سلع، وشعب بني حرام
١٤٠	المياه في المدينة المنورة
١٤٣	العين الزرقاء
١٤٤	بئر البصة
١٤٤	بئر زمزم
١٤٥	بئر السقيا
١٤٥	بئر البسيرة

١٤٥ .....	بئر غرس
١٤٥ .....	بئر رومة
١٤٥ .....	بئر حاء
١٤٦ .....	بئر بضاعة
١٤٦ .....	بئر أريس
١٤٧ .....	أهل المدينة عما وصفها العياشي
١٥٠ .....	عادات أهل المدينة
١٥٧ .....	نساء المدينة
١٥٧ .....	من عادات أهل المدينة
١٥٨ .....	الثروة والتجارة في المدينة
١٥٩ .....	عادات أهل المدينة في المعاملات التجارية
١٦٣ .....	الأسعار في المدينة
١٦٥ .....	من عادات أهل المدينة
١٦٩ .....	من عادات أهل المدينة النخالة
١٦٩ .....	الزيارات الرجبية
١٧١ .....	الصحة في المدينة
١٧٣ .....	الإدارة والحكم في المدينة

الأغواث .....	١٧٥
أمراء المدينة .....	١٨٠
نفوذ الأتراك في المدينة .....	١٨٢
المناصب الشرعية .....	١٨٣
العلماء في المدينة من أهلها ومن غيرهم .....	١٨٧
عناية العياشي بوصف الكتب .....	١٩٤
المقارنة بين أهل مكة وأهل المدينة	
في التحضر واللباس .....	١٩٩
العودة من المدينة إلى مكة .....	٢٠٣
الرجوع إلى المدينة ثم العودة .....	٢٠٨
فهرس الكتاب .....	٢١٣



## DAR ALRIFAI

FOR PUBLICATION, PRINTING  
AND DISTRIBUTION  
SAUDI ARABIA  
P.O.BOX 1590 RIYADH 11441  
TEL. 4777269

## دار الرفاعي

للنشر والطباعة  
والتوزيع  
المملكة العربية السعودية  
ص.ب. ١٥٩٠ الرياض ١١٤٤١  
تليفون: ٤٧٧٧٢٦٩

مكتابع النشر في التجارئة - الرياض الممذر ٤٨٢٤٨٦٥ / ٤٨٢٤٩٨٣

